نخبة الفكر

تفسير سورة العنكبوت

كتبها الشيخ

عمر بن محمود

أبو قتادة حفظه الله



مجموعة نخبة الفكر تقدم:

كتاب:

تفسير سورة العنكبوت

لفضيلة الشيخ:

أبي قَتادة الفلسطيني

– حفظه الله –

تم نشر هذا العمل في:

صفر 1436 - نوفمبر 2014

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ أعِنْ ويسِّر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد:

فإن الدعوة إلى الله وتعليم الناس الحق والجهاد في سبيل الله تعالى هي أعمال الرسل الكرام، وهي أجلُّ أعمال الوجود، لا ينهض لها إلا المهتدون، ولا يصبر عليها إلا ذوو العزم والثبات واليقين، ولما كانت العقائد مرتبطةً بمناهج أصحابها في الدعوة والبيان والمواقف والأحكام، كل واحد من هذه تلقي معاني على أخرى، وهذه كلها مأسورة بالأهداف والتي هي في دين الله وعود الحق التي وعد بها أنبياءه وأتباعهم، كان على العامل في هذه المهمات الجليلة أن يسير في دعوته وبيانه ومواقفه متبّعًا، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1]

ومسيرة العامل مرسومة جلية بمشقّاتها وغَمَراتها، كما هي جلية في إغراءات الخصوم وعداوتهم، وهي بيّنة العواقب لكل الفرق والمواقف.

كل ذلك في كتاب الله تعالى، فالقرآن الكريم في الكثير من سوره وآياته يهدي العامل ويبصّره كما يحذّره وينبّهه حتى يكون على نور من ربه بلا الْتِباس.

إخفاقات الدعاة والدعوة في الوصول إلى الوعود لها أسبابها، والواقع يبيّن أن الكثير من أسباب هذه الإخفاقات يعود إلى ترك الهداية القرآنية في مناهج هؤلاء الدعاة، وإلى أخطائهم في اتخاذ المواقف بعيدًا عما كان عليه الأنبياء في سيرهم ومواقفهم، وهذا العِلمُ القرآني هو ما يلزم الاجتهاد في استنباطه من القرآن اليوم؛ لأن المعاصي الحاضرة كل واحدة منها كانت تستدعي بعثة نبي – كما سيتبيّن لقارئ هذا الكتاب –، ولن يصل الداعي إلى النصر الذي وصل إليه الأنبياء إلا بلزوم غرزهم وهدايتهم، والتنكّب عن هذا الغرز والهداية جناية عظيمة على دين الله تعالى وقيمه وأحكامه.

لزوم طريقة الأنبياء في المواقف التي تعترض الدعاة شاق، فيه المحن، وسيعاني منه المهتدون كثيرًا بلاءً وفتنة واختبارًا، وهذا يوجب عليهم الصبر الطويل، ولن يعينهم على هذا الصبر إلا اليقين على ما هم عليه وأن وعود الله

---

[1] يونس : 109

تخفّهم وتسير معهم فإن جاء قدَرُها الذي قدّره الله فلن يردها راد.

لقد آمنتُ بأن القرآن أولاً، ولكني تيقنتُ أن رفع شعار العودة للقرآن لا يكفي دون أن يهتدي الدعاة بهداية القرآن التفصيلية، والتي لا يبلغها المرء إلا بأن يحبس المرء نفسه على القرآن متدبرًا معتبرًا، وإلا يبقى الشعار مجرد كلمات يقولها الناس ثم إن اختلفوا في شيء لم يعودوا إليه بل استحسنوا على وفق مقتضيات نفوسهم واختياراتها، وهذا كما هو شأن فقهاء الرأي والاستحسان من المعاصرين، إلا أنه كذلك طريق العاملين للدين في الدعوة وإعادة إحيائه وإزالة الغربة عنه، وحتى لا يبقى هذا الكلام اتهامًا بلا دليل، وحتى نمارس العودة للقرآن حقيقة وواقعًا وليس شعارًا فقط كان هذا الكتاب، وهو تفسير سورة العنكبوت، يأتي بعد قراءة وتدبر سيرة الرسول ﷺ في الغزوات كما قالها الله كلمات في كتابه، ويأتي بعد قراءة حادثة كسر الأصنام التي أتاها الحكيم إبراهيم الخليل عليه السلام ليشكل مع هذه وغيرها منهجًا يُبنى من الكتاب قبل كل شيء؛ لأنه الحق، ويقتصر عليه لأن في الشفاء لأمراض المسلمين قبل غيرهم، ولأمراض الدعاة لأنهم أحق الناس أخذًا بهذا الشفاء الحق.

لقد اخترتُ سورة العنكبوت هنا لأسبابٍ عدة، سيعرف البعض أسباب هذا الاختيار بعد قراءة هذا الكتاب، ويكفي أن تكون مغرية؛ لأنها منذ مطلعها تعالج قدر الإيمان وهو الابتلاء. وعند الفحص يتبيّن أن السورة تعالج موضوعًا إيمانيًا عظيمًا؛ هو الهجرة في سبيل الله تعالى، كما أنها منذ الابتداء تحمل التحدي في معرفة مكان نزولها، أمدنيّةٌ هي أم مكيّة؟!

وأهل الابتلاء اليوم بحاجة لهذه الوصفة الربانية العظيمة، فكان أن أقدمتُ عليها، عشتُ معها في وحدتي فريدًا، عالجتُ بها نفسي قبل غيري، وكانت ترمِّمُ ما يلحق بي من هناتٍ أو ضعف؛ لأن التساؤلات كثيرة، وموجة المراجعات صارت ظاهرة العصر عند من كانوا إخوة طريق وهدف، فكان لا بُدَّ أن أتقفر نفس الطريق، فلماذا لا يكون لي مراجعات كغيري قبل الذهاب إلى القبر وملاقاة الله؟ وهل غير كتاب الله يحلّ الاشتباك بين المؤمنين به؟ وهل هناك أعظم من أن يعرض المرء نفسه وواقعه على كتاب الله فتدخل الوقائع والأحداث والأشخاص والجماعات في أحكامه وشخصياته حيث يعرف كل واحد مثله فيه، ويرى موقفه الذي اتخذه في كلماته وقصصه؟

لو كان التعامل مع غير الله لقلتُ غير هذا، ولي – بفضل الله – عقلٌ أعرفُ منه قدرَته عندما أعرضه على عقل غيري، ولي قلمٌ – بفضل الله – أعرفُ منه سطوَته عندما أجري به في ساحات النزال والجدال، لكن كل هذا لن ينجيني عندما يقف المرء بينه وبين ربه ليقول في دين الله ما ليس منه؛ فالله لا يرضى من عبده إلا الصدق، ولا يقبل منه إلا أن يأخذ الأمر من مظانه، فهما شرطا النجاة، الإخلاص والصواب، فمن غير صدق مع الله، ومن

غير طلب الهداية من كتاب الله ومن لزوم طريق الأنبياء لن ينجو المرء في هذا الزمن الذي كثرت فيه المعروضات وتزيّنت بزخارف القول وبكثرة النقول التي تُلوى أعناقها موافقة للهوى؛ للهروب من المواجهة ومن قدر الإيمان بالامتحان والابتلاء.

هذه قراءتي لسورة العنكبوت، هي مراجعاتي لمسيرة الطريق لي ولغيري ألقى بها وجه الله يوم العرض عليه، وهي وصيتي لمن أراد ما أردتُ والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين.

مكان النزول:

اختلف أهل الرواية والتفسير في مكان نزول هذه السورة إلى ثلاثةِ أقوالٍ معروفةٍ في كتب التفسير، فهناك من قال بمكيّتها، وهناك من قال إنها مدنية، وهناك من قال بوجود آياتٍ مدنيّة وأخرى مكيّة، وحيث أن الجزم عن طريق الرواية صعب وبعيد فإن الطريقة العلمية الملائمة للفصل في هذا الباب هو دراسة مواضيع السورة؛ ذلك بأن أهل العلم رأوا قواسم للسور المكيّة وأخرى مدنيّة، ومن خلال هذه الموازين يمكن المقاربة في إدراك مكان النزول، ومَبْحث مكان النزول مهم في التفسير جملة، وتُعرفُ آثاره في مسائل متعددة في كتب أهل العلم، ولكن ما يهمنا في دراسة هذا المَبْحث هنا في تفسير سورة العنكبوت هو معرفة الحالة التي كان يحياها الصحابة ﷺ وقامت هذه السورة العظيمة بمعالجتها، وهذا مبحث تربوي وهو أهم مقاصد القرآن الكريم؛ لأن القرآن الكريم كان يواكب حالة الداعي والمستجيب والمعرِض فكرًا ونفسًا، فيجيب على الأسئلة ويُقوّم المسيرة، ويُصلح النفوس، ويُقوّي الإرادات الساكنة لتُواصل الرحلة. وحين يدركُ الناظر ظروف الآيات فإنه يرفعها عند اللزوم والاعتبار لمشابهة الحالة بالحالة، مع الإقرار بأن عموم اللفظ أَوْلى من خصوص السبب، لكن معرفة السبب ومنه البيئة التي تنزلت فيها الآيات يكون أولى المعاني في معرفة مقاصد الآيات ومعانيها.

بالنظر إلى آيات هذه السورة يمكن الاستشهاد للقائلين بمكيّتها بأمور، منها:

1. لقد ذُكر في هذه السورة مراجعات بين الكافرين والمؤمنين هي أقرب ما تكون للمراجعة الحاصلة بين قريش والمؤمنين، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2] وهذه الخدعة الكافرة يكاد أهل التفسير يتفقون بأنها إحدى عروض قريش على المؤمنين من أهل مكة؛ ذلك بأن هذا الحوار فيه معنى الضعف المدعو ماديًا، واستعلاء الداعي، وهي حالة مكيّة، إذْ أن حال المدعو تدل على أنه يتحمّلُ أعباء معاناة حاضرة رجاء مغفرة الذنب يوم القيامة، ويخلو من ذلك الداعي، وحالة مكة هي كذلك. فالمؤمنون هم الذين يتحملون المشاق رجاء الغفران، ومع أن حالة البلاء غير مذكورة في الآية إلا أنها حاضرةٌ في معنى الخطاب، وهي حاضرةٌ في السورة كلها كما هو معلوم.
2. لقد كانت السور المكيّة هي صاحبة الاختصاص تقريبًا في ذكرِ بلاء الأنبياء مع أقوامهم المعاندين، وفيها القصص للحوار الدائر بينهم لِما يتعلق بالتوحيد وموضوعه، وسورة العنكبوت فيها هذا كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

[2] العنكبوت : 12

أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[4]

3. وفي سورة العنكبوت ذكر قضايا الفترة المكيّة ومن ذلك التنبيهات على ربوبية الله الموجبة لتألّيهه، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[5] إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[6] وهذه قضايا مكيّة باختصاص تقريبًا.
4. في السورة ذكر اضطراب المشركين بين حال الخوف وحال الأمان، تنبيهًا إلى فساد الشرك وحق الله بالتوحيد في كليهما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[7]
5. في الصورة ذكر الله منّته على قريش تنبيهًا إلى وجوب شكره ومبيّنًا فساد كفرهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[8]
6. في السورة محاورات من المشركين يُعلَم تاريخيًا أنها هي عينها خصومات أهل مكة ضد النبي ﷺ وأصحابه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[9]
7. في السورة قضية الدعوة إلى الهجرة والترغيب فيها، وهذه قضية مكيّة كما قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[10]

هذه بعض ما يمكن أن يحتج للقائلين بأن السورة مكيّة. ويقابل هذا القول بأنها سورةٌ مدنية، ويحتج لهؤلاء بأمور، منها:

1. لقد ذُكر في هذه السورة لفظ الجهاد مرتين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[11] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[12]؛

[3] العنكبوت : 16-17
[4] العنكبوت : 40
[5] العنكبوت : 61
[6] العنكبوت : 63
[7] العنكبوت : 65-66
[8] العنكبوت : 67
[9] العنكبوت : 53
[10] العنبكوت : 56
[11] العنكبوت : 6
[12] العنكبوت : 69

وقضيةُ الجهاد حكمٌ مدني إن أُطلق لفظُه، هذا مع اتفاقهم أن لفظ الجهاد في سورة الفرقان هو لفظٌ مكي في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[13] وهو جهادٌ مقيّد كما هو بَيّن – أي قد ذكر الجهاد مقيدًا بالقرآن – فقوله تعالى: ﴿بِهِ﴾ يعود إلى القرآن الكريم. وأمّا في هذه السورة فالجهاد مُطلق، وأهل التفسير يفسرونه بقتال المشركين لا غير.

2. ذُكر في هذه السورة لفظ النفاق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[14] والنفاق لا يُعرف البتّة في مكة، إنما هو حالة مدنيّة ظهر بعد استقرار الرسول ﷺ فيها بعد هجرته.
3. ذُكر في السورة حالة مدنيّة، وهي مجادلة أهل الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[15] والاستثناء هنا إما يعود إلى الجدال، فيكون المسلم مأمورًا بترك جدال الظالم منهم، وإما يعود إلى قوله تعالى: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فيكون القتال كما هو قول المفسرين، وبعضهم لم يذكر غير هذا الوجه كالطبري وابن كثير. وعلى القولين فإن هذا من مباحث الوضع المدني لا المكي.
4. ذُكر في السورة مباحث وأحكام، وجودها هنا يجعلها ألْيَق بالسور المدنيّة، ومن ذلك أمره ﷻ للمؤمنين بالإحسان إلى الوالدين، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[16] والأمرُ بالصلاة وآثارها على المسلم والمجتمع المسلم، كما في قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[17]

فهذه بعض ما يحتج به للقائلين بمدنيّة السورة.

وقبل الخوض في بيان وجه الصواب بين القولين – فيما أظن – هو أن تسمية النازل بعد الهجرة مهما كان موضوعه مدنيًا قد يكون سبَبَ الالتباس هنا في تحديد مكان النزول. فالسورة تتحدث عن حالة واضحة، بيّنة في موضوعها؛ وهي معالجَة معوِّقات الهجرة إلى أرض الجهاد، فهي إذن تتحدثُ عن البلاء الواقعِ أو المتوقّع لهؤلاء المؤمنين الذين مازالوا لم ينفروا إلى أرض المدينة التي صارت أرض جهادٍ علميٍّ وعمليّ.

لا يُجعل مباحِثها لمجتمعٍ مدنيٍّ خالص، وكذلك لا يُجعل مباحِثها تتحدث عن بلاء المؤمنين بسبب إيمانهم في مجتمع الكفر والشرك فقط، ولذلك فهذه السورة تعيش حالة خاصة، هي دعوة البيئة المؤمنة لمن تأخر عن النفير

[13] الفرقان : 52
[14] العنكبوت : 11
[15] العنكبوت : 46
[16] العنكبوت : 8
[17] العنكبوت : 45

إليها بسبب عوائق، حالةٌ كالوالدين وتزيين المشركين بالقعود، أو عوائق مستقبليّة مثل بلاء الجهاد وآلامهُ وتكاليفه، وبلاء الصراع مع الأقربين لهذا المجتمع من أهل كتابٍ ومنافقين.

وإذا تبيّن هذا لمن تأمّلهُ على وجهه الصحيح، عَلِم أن السورةَ نازلةٌ بعد الهجرة فهي مدنيّة بهذا الاعتبار، ولكنها تعالج موطنًا قد خُلّف بعد الهجرة وهو حالة مكيّة، فهي مكيّة بهذا الاعتبار. لكن لما كان المصطلح قد جرى بين أهل العلم أن القرآن المدني هو ما نزل بعد الهجرة، وأن القرآن المكي نزل قبل الهجرة، فإن من جزم بأنها مدنيّة هو المسيِّب مع ما اضطره إليه ناظرٌ آخر أن يرى في بعض آياتها أنها مكيّة، وهناك من نظر لآيات السورة بانفراد فقالَ بما أوصله نظره على تقسيم آياتها بين الأمرين – أي فيها آيات مدنيّة وأخرى مكيّة –.

هذه الحالة التي نزلت تعالجها هذه السورة يجعل لها خصوصية الخطاب الذي يخرج بين ظرفين، لكنه لقومٍ معنِيين هم وقوفٌ لم يتجاوزوا قنطرةً سامِقة تمثّل وجود إسلامي متكرر نزلت فيه هذه السورة، وسيبقى حيث بقيَت الهجرة وأسبابها ومعوّقاتها.

هذه السورة لا تُعالِج أحكامًا لموضوع الهجرة، إذ تولّت هذه المهمة آياتٌ أخرى من الكتاب كآيات سورة النساء، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾[18] وخواتيم سورة الأنفال، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[19] لكن هذه السورة تعالج نفوسًا وقلوبًا؛ لتدفعها إلى تجاوز المحن والمعوّقات، وهي مهمّة من المهمّات القواسم بين السور المكيّة والمدنيّة، وإن كانت أكثر وضوحًا في سور المناسبات المدنيّة لغزوات الرسول ﷺ كآل عمران والأنفال والاحزاب؛ لأن السور المكية تُعالِج المدعو في إعراضه أكثر من الداعي، على خلاف بعض السور كالإسراء والكهف والشعراء فإنها تتحدث عن مصائر المعرضين ومن مقاصد ذلك تثبيت الداعي والمؤمن، وفيها نذارة المعرض المشرك، أمّا سورة العنكبوت فإنها تكادُ تكون خالصةً في معالجة قضية الهجرة من جهة عوارضها النفسية.

ومما ينبغي أن يدركه الناظرُ لكتاب الله تعالى حين يتحقق له الاعتبار والاتعاظ أن يتعامل مع القرآن في مستويات متعددة، فالنظر إلى كل آية على حِدَة فقط يحقق بعض الاعتبار والعلم ولا يحقق كل مقاصده، بل إن متعة التلاوة المطلوبة قد تفوته هنا، فإن أراد هذه المتعة التي تتحقق بالقراءة كما يشعر عند قراءة سورة يوسف أو قصة مؤمن آل فرعون في سورة غافر فإن عليه أن يقرأ الكثير من السور وخاصة المكيّة كوحدة واحدة تتحدث عن

[18] النساء : 97

[19] الأنفال : 72

باب من أبواب العلم. ولإدراك هذا لا بُدَّ من معرفة الأسلوب القرآني، وهو أسلوبٌ عربي يعرفه أهل العربية في نظمهم الخاص، وكما شكى العارفون بالشهر ومعانيه من مزاعم الدعوى الباطلة أنّه لا يوجد وحدة موضوعية في القصيدة العربية، فكذلك هناك من يزعم هذا الزعم في كتاب الله تعالى، وسبب حصول هذه الدعاوى الباطلة هو جهل القارئ بأسلوب الخطاب، وأعان على ذلك كتب الشروح؛ لأن كتب شروح العربية في التفسير وغيره تتعامل في معظمها إمّا مع اللفظ وشرح غَريبة، وإما مع الشطر منفردًا عن الكل، كالبيت الواحد في القصيدة أو الآية في السورة، وهذا يُبعد ما يسمى بالوحدة الموضوعية للقصيدة أو السورة، ونحن إذْ نقرن بين الإثنين؛ لأن المعاناة واحدة، ولأن القرآن عربي مبيّن ومعجز لأقوام أعظم كلامهم هو القصيد والشعر. وقد حاول بعض أهل العلم رأب هذا الأمر فنشأ ما يُسمّى بـ«علم المناسبة» أي: مناسبة الآية للآخرى، ومناسبة السورة لِما قبلها وما بعدها.

لقد حاول سيّد قطب – رحمه الله – أن يتعامل مع السورة كوحدة، وقد أتى بخيرٍ كثير، إذْ لا أعلم أحدًا سبقه في تقسيم السور إلى مهمات كرؤى يقدمها بين يدي السورة، وإن كان قد بقي الكثير في هذا الباب مما لم يقله وقد اعتمد في ذلك على ذوق خاص رفيع لكنه كان مقيدًا بأمور تتعلق باهتماماته وقدراته القاصرة على الأدب واللغة دون السيرة والفقه والحديث، فجزاه الله خيرًا إذْ نصح وجاهد وبلّغ وجدّد.

دراسة النظم القرآني خاصة والنظم العربي عامة؛ لإدراك مهمة السورة الواحدة يحتاج إلى مؤلف منفرد، ولكن لإدراك بعضه هنا مما يعين طالب العلم فإني أُحيل القارئ إلى كتاب الأستاذ الكبير محمود شاكر [نمطٌ صعب ونمطٌ مخيف]، إذْ فيه بعض الإرشادات المهمة والجليلة في هذا الباب.

وللاعتراف بالفضل لأهله فما قاله الأستاذ هناك هو الذي شكّل البدايات الأولى عندي لتذوق القرآن في هذا الاتجاه، وقد طبّقتُ هذا على سورة فُصّلت، وكتبتُ في ذلك مقالًا سريعًا يُلائم الحال، ونُشر في مجلة نداء الإسلام وكان بعنوان [طبقات الملحدين مع القرآن الكريم]، وأرجو أن أعود إلى هذا الأمر بتوسّع وتمثيل يقرّب المراد والله الهادي.

إذن قراءة سورة العنكبوت كوحدة تتعلق بمعالجة حالة إيمانية للجماعة المهتدية التي ثقلت بها أمور عن تجاوز قنطرة الهجرة يكون من خلال قراءتها بعدة مستويات:

1. فألفاظها تكشف لنا أنها سورة مدنية كوجود لفظَيّ النفاق والجهاد.
2. وبيّنتها في آياتها منفردة تنبئ عن معالجة قضايا متعددة تتعلق بقضية الابتلاء في ظرفه الحالي والمستقبلي للمقيم والمهاجر.
3. وصَبغتها العامّة تدلُّ على عنوانٍ واحد، هو الابتلاء لقضيةٍ خاصة، كان فيها الجمع للحالتين المكيّة قبل

الفتح، والمدنيّة بعد الهجرة.

4. ولعلَّ جزمَ من جزَم بأنها مكيّة خالصة كان دافعه حديث السورة عن سيرة الأنبياء مع أقوامهم، فقد تحدّثت السيرة عن نوح وإبراهيم ولوط – عليهم السلام –، وقد فات هؤلاء إن سياق القصة القرآنية لهؤلاء الأنبياء في هذه السورة كان كاشفًا عن قضيةٍ تتعلق بالرزق وبالهجرة وبعاقبة الديار المقيمة على الكفر. وكان الحديث عن العاقبة فيه النذارة للبقاء في وسطهم، فديارهم ديار هلاك وخراب، ومن بقي فيها ظانًا أن فيها الأمان أكثر من الوضع الذي سيستقبله في دار الهجرة هو واهمٌ مخطئ، فهذا الأمان الحالي زائلٌ ولا يدوم، ولذلك كان خاتمة الحديث عن هؤلاء الأنبياء وأقوامهم هو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[20]
5. وأمّا حديث السورة في خاتمتها عن أمان الحرم المكي، قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[21]

فهو نذارةٌ وبشارة... أمّا النذارة فهي تنادي أن الذي أعطى هو الذي يأخذ، فكما أعطاهم الأمان فهو قادرٌ على سَلبِه. وأمّا البشارة فهي للمؤمنين في أرض هجرتهم وهي تقول إن الذي حرّم مكة وجعلها أمانًا هو القادر على تأمين المدينة وحمايتها.

وأمّا قضية الرد على فساد الشرك في حال الأمان والدعاء الخالص حال البلاء، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[22] فهي ضمن القوس الذي طَمْأَن الله فيه المهاجر بضمان الرزق بعد قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾[23] فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[24] ففيها تنبيهٌ أن الأمان آتٍ للمهاجرين، وهي تحذّرهم من ترك الشُكر بسبب فتنة السرّاء.

أمّا من اعترض على أن قضيّة الهجرة في السورة قضيّة متأخرة في الذكر؛ فكيف تكون عنوانًا يُستحضَر من أول القراءة في السورة؟ فيُرد عليه بالشرح التالي:

مما يجب أن يستحضره كل قارئٍ للقرآن قراءة التدبّر لا الأماني، أن يعلم أن القرآن الكريم له مهمّة عظيمة في هذا الباب وهي مهمّة امتحان القارئ، وهو امتحان الاستنباط، وقد كشف الإمام الطبري شيئًا عن هذا المعنى في مقدمة تفسيره، وهو يُبيّن بعض قواعده في التفسير أن هناك من معانيه ما هو مخفيٌّ تحت دلالة منصوبة عليه، لا

[20] العنكبوت: 41
[21] العنكبوت: 67
[22] العنبكوت: 65
[23] العنكبوت: 56
[24] العنكبوت: 60

هي بنفسها نص فيه، فقال عن بعض آياته التي لا يدرك إلا بتفسير رسول الله ﷺ له: "وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ، له تأويله بنصّ منه عليه أو بدلالة قد نصبها دالة أمته على تأويله."

والذي قاله الطبري في مقدمة تفسيره ذكره الشافعي قبله في كتاب [الرسالة]، ومن نظر في المقدمة لـ[جامع البيان]، وفي رسالة الشافعي رأى المشابهة في المباحث؛ لأن الأمر في كليهما يتعلّق بشرح مناهج البيان العربي وإدراك معاني القول تفسيرًا وفقهًا. وموطن مشابهة كلام الشافعي لما قاله الطبري هو في باب البيان الخامس فقد أولي، فهناك الموطن من أراد النظر.

فالقرآن الكتاب، كتاب هدايةٍ للخلق، وكتاب استنباط وتفكّر للعلماء المهديين منهم، والنبط والتفكر امتحانان؛ ليظهر مستوى التفاوت في العلم والفقه، وفي مسألتنا هذه فقد قال الشافعي في [الرسالة] كلمة تبيّن الجواب إجمالًا فقال رحمه الله و ﷺ: "وتبتدئ – أي العرب – الشيء في كلامها يبيّن أول لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يبيّن آخر لفظها منه عن أوله."[25] ثم قال ﷺ – لله دره أي عقل أتاه الله! –: "وتكلّم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تعرف الإشارة، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها، لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها."[26]

ووالله لو جازَ السجود لكلامٍ يُتلى غير كلام الله تعالى لجازَ السجود لمثل هذا الكلام؛ ولكن أين أهل هذا الزمان منه؟

وقضية الأسلوب القرآني تتماشى مع هذه المهمة التي يشير إليها الشافعي ومن بعده الطبري؛ ولذلك فقد تعدد الأسلوب القرآني في قصصه ومواعظه وأمثاله وأحكامه، فلو صح اعتراض هذا المعترض بأن تقديم المهمّة في الابتداء هو لازم الخطاب لكان عاجزًا أن يبين للسائل سبب تأخّر أمر الله لبني إسرائيل بذبح البقرة، فقد تأخر السبب بقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[27] إلى قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[28]

نعم؛ جرى القرآن في بعض قصصه على ذكر عقدة الحدث للقصة القرآنية في مطلعها، كما في سورة يوسف فقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾[29] إلى قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[30]

---

[25] الرسالة، فقرة رقم 174
[26] المصدر السابق، فقرة 175
[27] البقرة : 72
[28] البقرة : 73
[29] يوسف : 4
[30] يوسف : 7

وكما في سورة الكهف عن الفتيان المؤمنين بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[31] إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[32]

ثم بعد هذه المقدمة تأتي القصة بتفصيلاتها الهادية، ولو تفكّر المرء المستبصر في هذا، لرأى أن هذا فيه قمة التشويق كما ليس فيه إذهاب لفضيلة الامتحان، بل فيه فضيلة الجذب والشد؛ لأن المطْلع خفيٌّ متسائل، وفي التالي غذاءٌ مُتوالٍ يملأ العقل والنفس والقلب.

في سورة العنكبوت مَطْلع جليٌّ في حديثه عن الابتلاء عمومًا، ثم يجري بعدها على أسلوب فتح القضايا التي يعيشها المعْنِيّ، إذْ يتخفّى وراءها تحلُّلًا من المواجهة بالهجرة والجهاد. والمتكلّم العليم يعلمها في نفس السامع، وسامعها لا ينكرها بل يعدُّها ليقوي بعضها بعضها في نفسه بعضًا، حتى إذا استمر في بقاء التخفّي وراء المعاذير فلا بُدَّ حينها من الملامسة القريبة للأمر، فكان قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[33] فحينئذ يتحوّل الموضوع الخاص إلى عام، فلا يكون الحديث جاريًا عن بلاء الهجرة والجهاد فقط، وإن كان هو العنوان، ولكن يكون الحديث فتنة الابتلاء عامة كما يحياها المسلم في كل ظروفه.

من هنا تُفهم بعض معاني ما قيل في فوائد أسباب النزول، وإنها تُحقّق معنى ما يسمى بعض الفقهاء بالنص – كما هو عند الأحناف رحمهم الله تعالى – وكذلك ما هو بعد النص وهو الظاهر – عندهم كذلك– إذْ يتحقق أكثر من هدف، فبهذا بثَّ معنى العنوان في السورة كلها، كما صِيدتْ طرائد المعاني العظيمة الأخرى داخل ذلك كله.

هذا الذي تقدم من سبب ومكان نزول السورة، هو الذي تشهد له رواية مرسلة في (جامع البيان) للطبري، وهي وإن كانت غير متينة السند من جهة الدراسة الحديثة لكن يشهد لها موضوع السورة كما تقدم.

فقد قال ابن جرير – رحمه الله –: "حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد عن مطر عن الشعبي قال: أنها نزلت – يعني الآيتين ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[34] – في أناس كانوا بمكة أقرّوا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب محمد نبي الله ﷺ من المدينة: إنه لا يُقبل منكم إقرارًا بالإسلام حتى تُهاجروا. فخرجوا عامدين إلى المدينة، فأتبعهم المشركون، فردّوهم، فنزلت فيهم هذه الآية. فكتبوا إليهم: إنه

[31] الكهف : 9
[32] الكهف : 13
[33] العنكبوت : 56
[34] العنكبوت : 1-2

قد نزلت فيكم آية كذا وكذا. فقالوا: نخرج فإن اتّبعَنا أحدٌ قاتلناه. قال: فخرجوا فاتّبعهم المشركون فقاتلوهم ثمّض، فمنهم من قُتل، ومنهم من نجى، فأنزل الله فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[35]"

ويشهد قريبًا لهذه الرواية ما جاء في الطبري من روايةٍ عن حبر القرآن ابن عباس، أن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[36]، قد نزلت فيمن حاول الهجرة فرُدّ عنها من قِبَل قومه من قريش فأطاعهم فيما سألوه. ومثلها رُوي عن قتادة هناك.

والموطن يستدعي الكلام على طرق توثيق روايات العلوم؛ لأننا وجدنا جهلًا في صغار يحاولون إلغاء فوارق إثبات العلوم ورواياتها، إذْ قام هؤلاء بتطبيق المنهج الحديثي على كل علوم الإسلام، من علوم القرآن والسيرة ومباحث اللغة، حتى تجرّأ بعضهم في نفس علم التجويد زعمًا أنه لم يأتِ هذا العلم ومفرداته بطريق حديثيّ معتبر، وقام البعض جهلاً بتصفيته السيرة النبوية تحت باب صحيح السيرة النبوية، ولعل البعض من هؤلاء يفكر في دراسة التاريخ وأخباره تحت هذا العنوان وطرق التوثيق الحديثيّ. وهؤلاء صغار بحق لم يبلغوا طرق الأوائل في توثيق العلوم، ولو أدرك هؤلاء مكان عقولهم وأقدامهم لرأوا أن دعوتهم هذه هي عين ما طَبقَّه نُفاة الشعر الجاهلي، وهي الطريقة التي طبّقها – جهلًا وعماءً – طه حسين في كتابه في الشعر الجاهلي.

ولو تفكّر عاقل في هذا الباب لوجد أن هذه المناهج الجاهلة هي أصلح ما تكون سلاحًا في تدمير علوم الأُمّة الإسلامية المتنوعة؛ ذلك لأن لكل عِلمٍ طُرُقه في التوثيق قد تشترك في أمور وقد تفترق في أخرى، فهذه القراءات المتنوعة التي هي أكثر من عشر قراءات في الحقيقة للقرآن الكريم هل لها وجود في كتب الحديث؟ وهل عاصم بن بهدلة ابن أبي النجود غير متين في علم الحديث وروايته، فهل يجعله ضعيفًا في قراءته المروية عنه؟ وإذا كانت عامة أخبار الفتوح وتاريخها قادمة إلينا من طريق الإمام الواقدي وهو مُتّهم في الصناعة الحديثية، فهل يعني هذا عند هؤلاء أن نُلغي أغلب تاريخ الفتوح ومحيطها السياسي والاجتماعي؟ وإذا كان الكلبي مُتّهمًا في علم الحديث وهو إمام علم الأنساب، ولا يكتب أحد في الأنساب إلا وهو عالة عليه، فهل يعني هذا عند هؤلاء أن نُلغي رواياته في الأنساب وعلومها؟ وإذا كان محمد بن إسحاق هو إمام علم السيرة وكل من أتى بعده عالة عليه – كما قال الإمام الشافعي – وفيه مقال عند أهل الصناعة الحديثية من جهة قوة روايته أو تَدْليسه، فهل يعني عند هؤلاء أن لا نقبل أخبار سيره إلا إن أتت عن غيره كذلك وصرّح بالتحديث؟ وبمثل هذا يُقال هم سيف بن عمر التميمي الذي هو عمدة تاريخ الطبري. والأمثلة في هذا الباب كثيرة.

---

[35] النحل : 110

[36] العنكبوت : 10

ففي التفسير يُعلم أن علي بن أبي طلحة لم يرَ ابن عبّاس، وأهل التفسير يأخذون بروايته عنه ولا يردونها بالانقطاع، ويرون أن عامة روايته قد أخذها عن مجاهد بن جبر عن ابن عبّاس. وهذا يدل على أن صناعات العلوم ليست واحدة، بل لكلِّ فنّ رجاله ومناهجه وطرق إثباته، لكن لّما انتشرت الظاهرية في نقد الروايات –أي من خلال عرض رجال السند على كتب الرجال وخاصة ما وضع منها تسهيلًا للمبتدئين، ك[تقريب التهذيب] لابن حجر، ثم الحكم عليها دون دراسة النص دراسة داخلية كما هي منهج العلماء المحققين، آل الأمر إلى هذه النتائج المرضيّة الفاسدة، وهي تلتقي في نتائجها مع دعاة الجهل والبدعة – كما تقدّم – من فعل طه حسين، ومثله العسكري الرافضي في نَفْيه لعدد من الصحابة، ودعوى اختلافهم وعدم وجودهم مُتحصنًا – كما يزعم – بمنهج المحدثين في نقد الأخبار، كما نفى كذلك وجود عبدالله بن سبأ اليهودي بهذه الحجج السخيفة. وأهل الجهل لا يستطيعون الرد على هؤلاء، بل الذي يتولى الرد عليهم هم أهل صناعات الفنون المتعلقة في بابهم.

ولو نظر طالب العلم في كتاب ناصر الدين الأسد [مصادر الشعر الجاهلي] لعلِمَ معنى هذا التنوّع في صناعات العلوم وطرق توثيقها. ويحضرني في هذا الباب قصة ذكرها ابن حزم في [طوق الحمامة]، تُبيّن هذا النوع من الجهالات، فقد ذكر أن فقيهًا كان في سفينة، فرأى رجلًا يحمل قوارير معه فسأله عمّا فيها فأجابه بأنها خمر. فسأله: من أنت؟ قال: يهودي. فسأله: ممن اشتراها؟ قال: نصراني. فأخذ الفقيه قارورة وشربها؛ فنهره صاحبها: إنك مسلمٌ فقيهٌ وهي خمر فكيف تشربها؟ فقال الفقيه: أنا لا أقبل رواية مسلم عن مسلم غير ثقة فكيف أقبل رواية يهوديٍّ عن نصراني.

والقصد، أن قراءة رواية الإمام الشعبي – رحمه الله – بظاهرية المعاصرين المدّعين للتصحيح والتضعيف والرد والقبول، لن تخدمهم في شيء في رد هذه الرواية التي أنتصرُ بها للتدليل على المعنى الذي أردتُه في مكان وسبب نزول سورة العنكبوت؛ لأن الأمر في الوصول إلى معنى ما رواه الشعبي أكبر من هذه الطريقة المستسهلة العصرية.

إذْ الواجب يتعلق بدارية النص في داخله؛ لمعرفة معناه وبَيْنونته وصبغته، وهذا الأمر ليس مُحدَثًا يقوم على جهالات العلمانيين أو أهل البدعة في رد النصوص الصحيحة كما يزعم المقابلون لهم من صغار أهل هذه العلوم في الصف الإسلامي؛ بل إن نقد النص – المتن – هي طريقة جهابذة العلماء القدماء، يُعلم هذا من أحكامهم وفقههم – وهذا بابٌ واسعٌ ليس هذا موطنه –؛ ولذلك لا يحل لأحد أن ينفي خبرًا يُثبته أهل العلم فيه إلا من خلال قواعدهم هم. لكننا في زمانٍ لا يفقه كثيرٌ من المنتسبين للعلم مصطلحات أهله لا مباحثه وعلومه، وإلا فقل لي بربك كيف تعذر عالمًا يُفسر كلمة حربيّ في كتب الفقه على معنى ما يفهمه العوام – أي المقاتل –.

وتجري هذه السخافات على الناس لقلّة معرفتهم بكتب الأولين وعلومهم ومناهجهم النقدية بل ومصطلحاتهم.

هذه السورة عندي وحدةٌ واحدة، عنوانها: قَطْعُ الموانع عن الهجرة إلى أرض الإيمان والجهاد.

ولأن الهجرة محطة من محطات الابتلاء، وفيها من المعاني الخاصة التي تختلف عن قضايا إيمانية أخرى لها ابتلاء خاصٌ بها، وهي قضية مجتمع مؤمن كما هي قضية فرد مؤمن، فإن استقلال سورةٌ تعالجها ليس بالأمر البعيد، كما أن قضية الهجرة هي قَدَر لازمٌ للدعوات الإيمانية كما كشف ذلك ورقة بن نوفل للنبي ﷺ، وكما تُنَبّئ مسيرة التاريخ بذاك. هذا مع أنها ليست اختيارًا للداعي والمجاهد بل هي فعل اضطراري إما بالإخراج أو الخروج للنجاة من عذاب أو هَلَكة أو قَيْد، وإما بحثًا عن مواطن الصلاح كالعلم والجهاد والإيمان.

والقرآن الكريم يقرر أن أهل النصرة للمجاهدين المهاجرين مع فضيلة أرضهم التي تحقق فيها الإيمان والاستجابة له إلا أن القرآن يقدم المهاجرين في الفضيلة على غيرهم، وقد كان هذا التقديم في ثلاثة مواطن في كتاب الله كما في سورة الحشر وفي سورة التوبة مرتين، أما سورة الحشر فقد قدمهم الله في توزيع الفيء فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾[37]، ثم في الآية التالية ذكر الله الأنصار وفضلهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[38]

وأمّا في سورة التوبة فقد قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [39]

وقال تعالى في ذكر ساعة العسرة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾[40] ففضلُ المهاجرين جملة في المجتمع المسلم أعظم جملة من فضل الأنصار؛ وهذا لأن الجهاد والبلاء الذي بذله المهاجر أعظم من البلاء الذي يبذله الأنصاري له.

ويكفي المرء أن يعلم أن المهاجر يقطع كل علائق الدنيا وكأنه موتٌ مُشاهَدٌ مرئي، فهو مُخلِّفٌ أرضًا أَلِفَها وأحبَّها، وأهلًا لهم منازل الحبُّ الفطري كالأب والأم والإخوان والعشيرة والأصدقاء، ومالًا ومتاعًا هي عُدَد الإنسان ووجوده. ثم أقبلَ إلى عالَمٍ آخر، أعظمُ ما فيه قسوةً أن يكون غريبًا فيه. والغربة ألم لازمٌ متواصل، وهَمٌّ مشترك في لقاء الناس وفي غيبتهم، والمرء بفطرته مُركَّبٌ على الحنين لمواطن الصِبا وتشوّف النفس فيه، لا يطفئ هذا

[37] الحشر: 8
[38] الحشر: 9
[39] التوبة: 100
[40] التوبة: 117

الحنين متاع مضارع ولا لهوٌ مقيم. ثم حيث قَرعَ حَدَثٌ بينه وبين الناس كان السوط الذي يُلاحقه قولهم له: غريب. إن أحَبَّهُ بعضهم كان لا بُدَّ من أن يجد مبغضًا تدخل فيه عينه؛ لأنه لا سند له ولا عشيرة ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾[41]

في المقابل فإن الهجرة حرام الوجود الذي يمنع طحالب الركود من أن تنمو أو تتجذَّر، كما أنها تمنع الانغلاق الذي يؤدي إلى عصبيات الجاهلية، حيث تتلاقحُ الأنساب فيَذهبُ الفخر الكاذب، وتنمحي دعاوى العرق المميز السامي، وفي هذا يقع التنافس الحقيقي ليجني المرء والجماعة بمقدار ما تكتسب وتعمل، لا بمقدار ما تَرِثُ وتتفاخر، ولذلك كان حِراك الحياة وصورة الإنسان في عطائه وتطوُّره ونهضته أخصُّ ما يكون في المدينة، حيث يفِدُ الناس ويتلاحقون ويتمازجون ويتنافسون، لكن مجتمع القبيلة هو مجتمع الجمود والتشنُّج وثبات الحياة على نمطٍ متكرر رَتيبٍ مُملٍّ قاتل.

الهجرة في الموضوع الإيماني رِفعة للمهاجر واختبار لصدق إيمانه، حيث يوضَع الإيمان وعظَمَته وقيمته مقابل الحياة، وهي حالة استشهاد لا يصير صاحبها إلى جنان يستريح فيها من عناء الماضي ومشقته! بل هي حالة استشهاد وخروج عن الحياة إلى حياة بلاء جديد، وهي نصرة للدين يتحقق بها الانتساب للجماعة المؤمنة ولاءً ونصرةً كما تُبيِّن ذلك خواتيم سورة الأنفال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾[42] فحيث خرج البدن من التجمُّع، خَرَج تَبِعة نصرته والْتزام موقفه؛ ولذلك كانت جنسية المسلم ليست عقيدته فقط؛ بل إن جنسية المسلم لا تتمُّ إلا بإسلامه وهجرته إلى أرض الإسلام ودخوله في عصبة المؤمنين بالبيعة والجهاد والولاء.

ثم إن مشروع الإسلام ليس فرديًا، بل قضية وجود نظام ودولة يُصارع جاهلية دول وأنظمة؛ ولذلك هؤلاء النُزَّاع من القبائل يأتون من كل فجٍ مختلف الأصول والمنابت ليُشكِّلوا وجودًا جديدًا له قواعده في التَقدُّمَة والأَثَرَة، وله أهدافه التي تختلف عن قواعد ما خُلِّف وراءهم من قيم وقواعد، وهم حيث يؤوبون إلى دار الإيمان والنصرة فإنهم يُشكِّلون منطلقًا لرأس رُمحٍ قادمٍ إلى الآخرين بالهداية وطَرْد الشيطان ومغالبة الطواغيت.

فهكذا تُعين الهجرة في تحقيق أهداف هذا الدين مع رجال تُغيِّر ميزان الحب والولاء والبراء لديهم، فيكون البناء مُلائمًا للهدف وذلك بخلاف دخول الإسلام على أقوام قد استقرت بهم أحوالهم على معنى معين، وقامت عُمُد

[41] هود : 91

[42] الأنفال : 72

مجتمعاتهم على قواعد قد طال عليها الأمد، فإن هذا الواقع لا يسمحُ بتغَلْغُل القيم الإيمانية الجديدة إلى درجة انبعاثهم لغيرهم بالتغيير والجهاد والمجابَهة، وهذا معنى مشاهد في التاريخ، إذْ أن ما يحاول ترويجه أهل الضلالة اليوم من إسلام متعددٍ يضاف إليه أسماء الأمم والأقوام بل والدول؛ سببه هو ملامسة الإسلام لظاهر هذه الأمم دون وُلوجِهِ إلى قواعدهم فيصيغها صياغة جديدة، فهم لا يخرجون من الظلمات كلها إلى النور كله، كما وَصَف الله المؤمنين بقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[43]، ولكن هؤلاء يخرجون إلى نورٍ ضعيف تشتبك فيه بعض الظلمات المقيمة. ولكن بالهجرة الإيمانية تتشكُّل الأمم على قواعد الدين، ويصبح الحقُّ هو الحاكم في بُنْيَة المجتمع وفي قِيَمِهِ وعلاقاته، وبهذا يتحقق المنُّ الإلهي بالخلافة والنصر.

في القرآن الكريم تلازمٌ بين الهجرة والجهاد، والهجرة لا تنقطع ما بَقِيَ الجهاد، ولأن الجهاد حياة أُمَّة الإسلام ومُهِمَّتُها في الحياة فإن الهجرة هي أداة هذه الحياة وهو وسيلتُها، وكل آلام الجهاد هي آلام الهجرة، كما أن المعوِّقات هي المعوِّقات، لكن آلام الجهاد مع الخارج أكثر وضوحًا من آلامها الداخلية في الصفِّ المؤمن، بخلاف آلام الهجرة فإنها آلام المسلم مع نفسه ومحيطه القريب الأثير لديه. وتفترق الهجرة عن الجهاد بأن الجهاد فيه مُغالبة للآخر، لكن أهداف الهجرة لا تُحقَّق أهدافها إلا بالمشاركة – أي وجود الأنصار – وهذه وإن بَدَت في ظاهرها أهون من المغالبة في واقع الجهاد إلا أن لها آلامها وتكاليفها الخاصة بها، فتكاليف المهاجرين على الأنصار لا تكون إلا برضاهم في تَحمُّل هذه التكاليف؛ ولذلك ستبقى طموحات وآمال المهاجر مُعلَّقَةٌ باستعداد الأنصار في تَحمُّلها، وواقع الأنصار لن يكون خالصًا في الاستجابة؛ لأنه وإن غَلَب المؤمنون فيه عددًا في بعض الظروف إلا أن الملأ في واقع الأنصار يبقى مثيرًا في رفض هؤلاء الوافدين الجدد، وقد تقعُ القاصمة في أن يصبح هؤلاء المهاجرين طرائد لهؤلاء الغالبين من المنافقين.

في حادثتين مع الحبيب المصطفى والأنصار، كان أمر رصد مقدار استعداد مجتمع الأنصار لتحل التكاليف جليًا واضحًا، فهو يقيس ويُلقي مسباره ليرصد ويكتشف، فقد حدث هذا في غزوة بدر الكبرى، حيث جَعَل يسأل عن استعداد الناس في خوض هذه المعركة، وكان المهاجرون يُجيبون، وهو يسأل عن رأي الناس فيرد عليه الأنصار: كأنك تعنينا يا رسول الله؟ فيجيبُ بالإيجاب، فيأتي الرد الإيماني الشهير في تاريخ البشرية، وهو ردٌّ لم يقع قط من قبل في أمة من الأمم! فبنو إسرائيل الذين فضَّلهم الله على العالمين في زمنهم كان ردهم على موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[44]، ولما امتُحنوا في الشرب من النهر بعد موسى عليه السلام قال الله تعالى:

---

[43] البقرة : 257

[44] المائدة : 24

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[45]

لكن أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار قالوا كلمةً تبتهج لها ذرَّاتُ الكون المسبِّحة لربها: "اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنَّا معكم مُقاتِلون." وقالوا: "لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًّا عليها أن لا تَنصركَ إلا في ديارهم." "وإني أقول عن الأنصار وأجيبُ عنهم – القائل سعد بن معاذ – فاظعن حيث شئت، وصِلْ حَبْل من شئت، واقطع حَبْل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذتَ منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرتَ فيه من أمر فأمرنا تَبَعٌ لأمرك، فوالله لئت سرتَ حتى تَبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك، ووالله لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتهُ لخُضناهُ معك."

والحادثة الثانية على حالٍ مضاد لغزوة بدر، إذْ كانت غزوة بدر امتحان الخروج إلى الآخر، أما في الحادثة الثانية فكانت في غزوة الخندق، وهي امتحان الاستئصال والبلاء الداخلي بكل معانيه، إذْ عَرَض عليهم أن يدفع بعض ثمار المدينة لغطفان وأوباش العرب حتى يخذلوا قريش في حصارها للمدينة، وما فعل ذلك إلا تخفيفًا على أهل المدينة – كما قال بأبي هو وأمي – لكن القوم كانوا أصحاب عزائم لا رُخَص، فكان ردُّهم الإيماني الرائع: "يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعًا وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزَّنا بكَ نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف."

فهكذا لا يمكن تحقيقُ أهداف المهاجر في بلد الأنصار إلا بأن يرقى الأنصاري إلى هذه الأهداف، وأن يجمع في نفسه الاستعداد على تحمُّل تبعاتها؛ ذلك لأن المهاجر قد قدَّم كل شيء، وقطع علائقه مع هذا الوجود، لكن الأنصاري ما زالت حساباته وواقعه وارتباطاته.

هذه آلام المهاجر في أهدافه، ومعها آلام النفاق في صف مجتمع الأنصار الذين يرونهم غرباء وأجانب، يتمنون الاختلاء بهم ليفرغوا منهم، ويعلنون عليهم حروبًا نفسية: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[46] ويعيِّرونهم أنهم عالة يأكلون أموالهم وأرزاقهم ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾[47]، وينبزونهم بكل ألفاظ القبح والحقد "سمّن كلبك يأكلك" وغير ذلك مما هو مذكور في كتاب الله تعالى وسيرة النبي ﷺ مما يطول ذِكْره.

---

[45] البقرة : 249

[46] المنافقون : 8

[47] المنافقون : 7

إنها معاناة الألم في واقعه ونتائجه، وإن كانت تجربة الهجرة الإيمانية الأولى قد صار أمر الأنصار فيها إلى قلَّة يوصي بها النبي ﷺ لِما سترى من الأثرة والألم بعده، إلا أن هذا ليس قَدَرًا لازمًا للهجرة الإيمانية، بل قد يكون العكس هو الأغلب حيث تنتصر دار الهجرة ويصير أمر المهاجرين إلى قلَّة، هي من تستحق الوصاة والرفق والإحسان، فيالَه من خوف مُقيم لواقع معاش، وألمٌ قادم ينتظر دفع الثمن.

لكن بهذا الامتحان تنمو الأمم وتنشأ الحضارات وتنتصب عُمُد النهضة القرآنية والقَيْمية، ومن خلال هؤلاء الرجال ((النُزَّاع من القبائل)) كما وصفهم الرسول ﷺ في حديث الطائفة المنصورة، تقوم صدى الهداية للخلق فتحيا النفوس حين تتشوف اقتداءً بهم وسَيْرًا على دربهم؛ ذلك بأنهم الرجال الذين يُفاخر الله بهم الملائكة، فإنهم الذين قال فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[48].

---

[48] العنكبوت : 69

مطلع السورة:

تبدأ السورة بتلك الفواتح التي بهَرت العرب، وشوَّقتهم إلى ما بعدها فشدَّت قلوبهم إلى كلام يتلوها هي خطيرةُ الجانب، عظيمة النِّذارة والبيان، وقد اختلف الناس في هذه الحروف المقطَّعة التي افتُتحت بها بعض السورة اختلافًا لا أعِدُّه متناقضًا، بل مُؤداه إلى معنى واحد، وهو غزارة معانيها في نفوس سامعيها، وقد أحسن الإمام الطبري حين جعل معناها هو كلُّ ما قيل فيها من كلام لا مَطعَن فيه، فإن كلامًا يُقال بهذه الحروف التي تقذِفُ التساؤل والحيرة في نفس سائلها ثم ينصب الكلام المعجز بعدها بيِّنًا جليًا مُيسرًا، مُبهرًا في لفظه ومعناه ليجعل الأمر يعود إلى هذه الحروف ليبحث عن سرِّها عند قائلها، فتذهب العقول في وديان البحث الجاد؛ لأنها رأت في ما بعده كلامًا عظيمًا لا يخرج إلا من نفس إلهٍ عظيم حكيم حميد مجيد.

ولكن هذه الحروف لو قالها أحدٌ ثم أتى بعدها بكلام الجهالة والعَيّ، لما عدَّها الناظر فيها إلا تخليط كلام وهذيان، فكان سِرُّ هذا المطلع ﴿الم﴾ وغيره في السور هو عينه الذي وقع الناس فيه من التفكر، فهل هي مقصودة في ذاتها تدل على معنى خفي أم أنها مرشدة لأمر آخر كالقول بأنها حروف القرآن المعجز؟ وها هي بين أيديكم؛ فهلَّا أتيتم بمثله وقد أوتيتم مادة كلامِه؟

هي كل ذلك، بل وصارت شعارًا لحَمَلةِ القرآن في نفيرهم حين تبلغ القلوب الحناجر فينادي أهل القرآن بعضهم بعضًا بشعار القرآن: ((حم لَا يُنْصَرُونَ))[49] كما جاء في الأثر.

وإنه من جليِّ الأمر أن بعض السور المكيَّة قد افتُتحت بهذه المطالع كالحواميم والطواسين وغيرهما، ولم يَقف المعاندون للقرآن منها إلا موقف الدهشة والذهول، وفي قصة قراءة النبي ﷺ سورة فُصِّلت – وهي ثاني الحواميم – على الوليد بن المغيرة ما يدل على ذلك، فإن دل هذا على شيء فإنه يدل على تحقيق هذه الفواتح لمقاصدها عند الُمعاند وهو التنبُّه والشَّد.

وأمّا هي عند المؤمنين بالقرآن فعلى حالين:

1. إمّا أن يسيروا ضاربين في وديان التفكر في دلالتها على معاني خفيَّة.
2. وإمّا أن تكون لهم امتحانًا أن يؤمنوا بها أنها كلمات رب العالمين؛ وفيها الإعجاز والعَظَمة مع عدم إدراكهم لمراد الله فيها، وكلاهما موقف إيماني عظيم.

---

[49] عَنِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((إِنْ بُيِّتُّمْ فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ حم لَا يُنْصَرُونَ))، رواه أحمد: (16615)، وأبو داود: (2597)، والترمذي: (1682)، وصححه الألباني في الصحيحة: (3097)

لقد اكتسبت هذه الحروف المقَطَّعة عَظَمة الإعجاز وقوة الإبهار للكلام التالي خَلْفها؛ ولذلك من الإنصاف أن يعترف أهل العلم لِما يُسمَّى بالإعجاز العددي في القرآن؛ لأنه من دلائل إعجاز القرآن الذي لا تنقضي عجائبه.

وأمّا مُحاولة البعض نفي هذه الدلائل العلمية التي حواها القرآن كالإعجاز القرآني في الطب والفلك وغيرهما بحجة عدم وجود هذا العلم في أقوال السابقين من الصحابة والتابعين هي محاولات غير سديدة ولا مُوفَّقة، فإن الله ﷻ هو الخالق وهو منزل الكتاب وهو كلامه، وحين يُنبِّه الله في كلامه على عَظَمته في كلامه فإنه ينبههم إلى ما خَلق من أسرار وحكمة قد يعلمون بعضها في أزمانهم، وقد يتأخر عِلمهم بها إلى زمنٍ قادم، فيكون علم هؤلاء التالين في مراد الله في هذه الآيات أشْمل وأوضح وأَجْلى، وبهذا صار القرآن الكريم ليس مُعجزًا في لغته التي بَهرت العرب وأعجزتهم عن الإتيان بمثله فقط، بل هو مُعجز لكل الأُمم ولكل الأزمان التالية لزمن الصحابة حتى قيام الساعة، وهذا ما عَناهُ النبي ﷺ بقوله: ((ما من الأنبياء نبيٌ إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله علي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)).

ففي القرآن من الدلائل الجليَّة أنه كلام الله ما تصلح لكل قوم ووقت، ولو قصرنا الإعجاز القرآني على الإعجاز البياني لَما كان في هذا القرآن من دلائل أنه كلام ربّ العالمين إلا للعرب الذين يُدركون سرَّ العربية وذوقها، وهؤلاء قد مضوا ولم يبقَ منهم بعد انتشار الإسلام ودخول الأمم الأخرى في دين الله إلا القليل، وهذا شيءٌ لا يحتاج إلى كُثْر شرح ومراجعة، مع اتفاق الجميع أنه لا يجوز لأحدٍ أن يقول في كلام الله ما ليس فيه، وأن المرء لا يجوز أن يقول فيه قولًا إلا وقد انتصبت دلائل صدق وصواب قوله وإلا ردَّ عليه، والخطأ موجود في كل علوم الناس، حتى الذين يستنبطون الاحكام الشرعية من كتاب الله يكون فيهم المخطئ والمصيب، مع أن كلام الله إنما وُضِع ابتداءً لهذا المعنى عند المؤمنين به، فوجود الخطأ لا يُلغي أصل العلم ولا قواعده.

وأمّا الاستبشار بالدلائل فيه على الأحداث كمن يَستبشر بالأسماء والأماكن والوجود فهذا لا بأس به ولا يجوز أن يُشنَّع على صاحبه، لكن الجهل والبدعة هو اتخاذ هذا الباب حِرْفة مع كتاب الله تعالى كما يسميها البعض بـ«الاستخارة» وهي أن يفتح المرء القرآن ليستخير الموضع الذي فَتَح عليه في إجراء أمرٍ أو عَدَمه، فهذا الأمر اتخاذه على ما عليه هؤلاء هو بدعةٌ لا شك فيها، والنبي ﷺ كان يحب الأسماء الحَسنة ويتفاءل ويستبشر بها، وهي في جملتها من التيامُن وتركُ التَطيُّر، فإذا كان الناس يستبشرون بالأسماء والوجوه وكلمات العفو التي تُقال أمامهم، فالاستبشار بكتاب الله أَوْلى في هذا الباب، وقواعد هذا الأمر معلومةٌ ومنها أن هذه بشارات لا يَقطع المرء بها ولا

بمعانيها، لكن تَقع في القلب كشأن الرؤيا تَسُر وتُبشّر، كما سمّاها رسول الله ﷺ: ((المبشِّرات)).

فالإنكار على هذه المعاني على الوجه الذي يفعله البعض غير سديد، كما رأى الناس إنكارًا من بعضهم وكان الفعل ضلال وانحراف حين استبشر البعض بحادثةٍ عظيمة بكونها تتوافق مع رقم السورة أو رقم آية فيها على العمل واستحسانه، فهذا كله من باب معاني القلوب والتَيمُّن، وهو بابٌ لا يُحَلُّ به حلال ولا يُحرَّم به حرام، لكن المعاني في القلوب تتفاوت درجاتها ثُبوتًا، فتتفاوت درجات قوة أدلتها، وذلك الذي قدَّمناه في اختلاف العلوم وأبوابها هو عَيْنه هنا.

فإن السيرة النبوية لها فوائد في نفوسِ تاليها وسامعها أكثر من أحاديث الأحكام الموجبة للحلال والحرام، فكان التسمُّح في درجة ثبوتها؛ ولذلك إن المصنِّفين لها كعروة بن الزبير وابن إسحاق وغيرهما لا يتشددون في أسانيدها تشدُّد أحاديث الأحكام، وكذلك التفسير فإنه أغلبُه يتعلّق بتفسير الألفاظ، فهي أشْبهُ بكتب المعاجم اللغوية، وهذه لا يُشترط لها أهلًا ما يشترط الفقهاء لأحاديث الأحكام، وهكذا فإن هذا باب يَعرفُه ويَعرف دلائله ووجوده كل من اطَّلع على علوم امتنان، لكن الظاهرية المقيتة التي لا ترى إلا وجهًا واحدًا للمعاني هي التي تعود إلى هذه الأقوال؛ ولذلك فلا عجب من يأتي بنفي علوم السيرة وفقهها الخاص بها من أمور تربوية وأخلاقية وعسكرية وإدارية هي أوسع من أبواب الفقه الاصطلاحي تحت الزعم أن فقه السيرة هو عينه الفقه الاصطلاحي في كتب الفقه، فهذه الأقوال لو تفكر بها أصحابها لرأوا أنها تُلغي الحياة وتنوِّعها، وتُلغي تعدد معاني القلوب وما فيها، فالحمد لله على هدايته وتوفيقه.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ ۝ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[50]

هذا الافتتاح المميز لهذه السورة جاء الخطاب يحمل الاستفهام الاستنكاري لظنونٍ باطلة حول تاريخ الإيمان وطبيعته، والناس يفهمون أن جَنْيَ أيُّ خير في هذه الدنيا لا يكون إلا بثمنٍ وبذلٍ جهد، ويعلمون أنه كلما اشتدت قيمة الشيء كان الجهد أعظم، فالدرر لا تُلتَقط من الأرض كالْتقاطِ الجمار، بل تحتاج إلى جهد وعناء ومشقَّة، ولَّما كان الإيمان هو أعظم ما في الوجود، ونتائجه هي ما لا عين رَأَت ولا أذنٌ سَمِعت ولا خَطرَ على قَلبِ بشر، فإنه لا بُدَّ أن يكون الثمن غاليًا، وغاليًا جدًا. لكن النفوس حين تَنسى وتَغيب عنها حكمة التاريخ

---

[50] العنكبوت : 2-6

ويَختلُّ ميزان القِيَم فإنها تَظنُّ أن الإيمان وثماره هي أهون الموجود، فيحصل فيها الاطمئنان أن الإيمان مُتحصِّلٌ موجود وقد أُدِّيت مُستحقاته وواجباته، ولكن ما رُكِّب الإنسان عليه من عدم الشَبَع من الدنيا يأخذه إلى غمراتها باذلًا تَعِبًا في الزيادة منها وتكثيرها.

هنا تأتي هذه الآية لتُنكر هذا الحال وتقرع المفاهيم، لتعيد بناء الوعي على حقيقة الإيمان ومُستحقَّاته وبيئته ولوازِمه القدرية، ثم هي في تقريرها لذلك تستند على أمور اقتناع، منها:

1. تاريخ الإيمان وجَرَيان سُننه مع أتباعه على نسق الابتلاء والامتحان والفتنة.
2. ومنها أن الإيمان ليس مفهوم عقلي فقط كما هي مفاهيم ومعلومات الحياة يصدق بها المرء ثم تمضي في طريقها، بل الإيمان حياة وقِيَم لا تَثبُت معانيها على وجه الاقتناع فقط، بل إنما يَثبت وصف المتحلي بها بعد دفع أثمانها ورَدُّ العوادي عنها ووضْعِها أمام المرغوبات والشهوات؛ ليتم اختيار الحب لها مُقدِّمًا إياها على كلِّ شيء من المتع والأهواء؛ ولذلك فالإيمان ليس قولًا ﴿أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾ إذْ لو كان كذلك لما كان إلا صورةً في حياة البشر، أو كرقمٍ في ثوب، أو كمَوْطنِ سارٍ في الأرض تذروه الرياح وتعفي أثره الأمطار، لكن الإيمان عند أصحابه المتحلين به قيمةً، فيه الحب والولاء وفيه البغض والبراء، وفيه الجهاد والابتلاء، وفيه الموت والحياة؛ لأن طرف الإيمان هو الله ﷻ في الوجهة المقابلة للإنسان، فهو إيمانٌ بالله، والله هو المألوه وهو الذي منه الحياة والممات ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[51]

ثمّ إن تقرير هذه الحقيقة يستند على دعاوى الامتلاك والامتلاء القَلْبي حالة منتشرة في البشر، حيث يختزن عقل الإنسان ذكاءً نادرًا في قدرته على عدم تفويت المصالح، فحيث قَدَر أن يجمع بين الضدين حيث فيهما مصلحة فلن يعدم ذلك، وهو مُركَّبٌ على حب العاجلة.

إذن فليسعى للعاجلة، ولأن الآخرة حقيقة لا تُنكَر دلائلها فلا بأس من تحصيلها، لكنها آجلة، فيكفي أن تقول: آمنتُ بها. لتُحصِّل مصالحها، وهي قسمة ضيزى لا تتلاءمُ مع عزَّة الإيمان الذي هو ثمن الآخرة، وهي عزة في الابتداء لا تَقبل الاشتراك، فكيف تقبل البَخْس والتطفيف؟ فلذلك تأبى الانتحال بدون منازعة الغير من محبوبات الإنسان وشهواته، فالإيمان بالغيب يُنازع محبوبات الشهادة، ثم هو لن يُسلِّم لِيَدِ صاحبه حتى يعلم أنه في قلبه أعظم من كل شيء، هذا ما تجليه كلمة ﴿أَحَسِبَ﴾.

إنها طبيعة الإيمان وفِطرته، فهذا القرآن العزيز شبَّهه الحبيب المصطفى في عزته بالإبل، يتفلَّت عزيزًا أن يُملك، فإن ند فلا يعود إلا بجهد يُستقرُّ به في يد صاحبه على وجه الدلال والأَنفة، وهكذا الإيمان يَخْلَق في جوف

[51] الأنعام : 162

صاحبه، ويَضعفُ ذاهبًا بمقدار غفلة صاحبه عنه، ولا يعود إلا برِفْقِ مادَّته كما يَرفقُ صاحب الإبل بها وهو يعود بها إلى مواطنها.

إن هذا الإنكار المحمل عليه معنى الآية هو إنكار يُلائم من جَهِل حقيقة الإيمان ومن جَهِل تاريخه، أو من ظن أن مائدة الله هي أهون الوجود فلا تستحق ما تستحق نفائسه ومعاليه.

إن عزّة الإيمان هي التي اقتضت هذا اللفظ ﴿يُفْتَنُونَ﴾؛ لأن الفتنة هي استخلاص الصفاء من الشوائب، كشأن الذهب يَرقد تحت نيران الفتنة حتى يَخلُص من شوائبه فيستحق اسم «الذهب الخالص» الذي هو معيار القِيَم المادية، وكذلك الإيمان لا بُدَّ من جريان الفتنة عليه حتى يخلص اسمًا خالصًا فيكون معيار قِيَم الحياة في الدنيا وفي الآخرة.

ولأن الإنسان هو الإنسان، فحيث هو فلا بُدّ من تصفيته عن طريق الفتنة، فكان حينها أشد الناس صفاءً هم أكثرهم فتنة كما قال الحبيب المصطفى ﷺ: ((أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل والأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء))؛ فهكذا؛ لا يستقر إيمان زائد في القلب حتى يؤدي صاحبه حقه الملائم له، وحتى يذهب ما يقابله من منازع في قلبه ونفسه، فهكذا تصبح رحلة الإيمان هي رحلة البلاء، ورحلة الفتنة المتواصلة حتى يبلغ المرء اليقين.

نزوع الناس إلى السلامة هي محاولتهم الجمع بينها وبين الإيمان، فيخططون ويفكرون في كيفية الحفاظ على إيمانهم بعيدًا عن خطر الابتلاء، فتأتي الآية هذه لتؤكد لهم حقيقة عليهم أن يدركوها وهو أن تخطيطهم في هذا الباب إلى فشلٍ مُحقق، فلذلك جاء هذا اللفظ ﴿يُتْرَكُوا﴾، وكأن أمر هؤلاء إمّا إلى هروب من البلاء فهو مدركهم ولن يتركهم، وإمّا أنهم يحاولون تطويع الإيمان ليُلائم السلامة ولن يستطيعوا، ذلك إمّا الإيمان مع البلاء قدرًا لازمًا، وإمّا السلامة والتي لا تكون لهم إلا بترك الإيمان.

هذا البلاء والفتنة لا تكون بسبب اختيار المؤمنين لمصادمة أسبابها وتثويرها كما يحاول البعض تصويره جهلًا، بل لو أتى المؤمن بكل حِكم الوجود ليُسَكِّن أرجل الفتنة فلا تأتي، وليطفئ نارها فلا تحرقه فلن ينجح؛ لأن الأمر ليس بيده، فإنه حيث اختار الإيمان فلا بُدّ أن يكون مع صفقته مَبيعٌ آخر هو البلاء، فهي بيعتان في بيعة قدرًا لازمًا لا انفكاك بينهما.

في لفظ ﴿الإِنسَانَ﴾ هنا دلالة عبور بين اسمين، أحدهما خالٍ من الإضافة والآخر مضاف إليه صفة الإيمان، فهو في الحالة الأولى إنسان يقول إيمانًا، لكن الحالة التي يثبت له حكم الإيمان صادقًا بأنه أَهلٌ له هو المرور عبر

بوابة الابتلاء، فلا ثبوت للدعوى بمجرد اللفظ والادِّعاء، بل لا بُدّ من الإثبات والدليل، ودليل صدق الدعوى هو الابتلاء، وهي رحلة في كل قضية إيمانية، فلا إيمان وهو مبتعض إلا بأداء دليل الإثبات لهذا البعض، والإيمان لا يُقابل الفراغ، بمعنى أن خسارة بعض الإيمان لا يعني أن تخسر شيئًا فلا يكون بديلًا عنه عندك، بل إن قانون الحياة جُملةً يمنع الفراغ، فحيث ذهب بعض الإيمان جاء ضده، وكل بَعضٍ يذهب يأتي مقابله الذي يوازنه في المضادة، فذهاب شرطٍ من شروط الإيمان يعني حصول الكفر والشرك، وذهاب واجب من واجباته يعني مجيء الفسق، وذهاب مُستحباته يعني فوات مراتب القرب ((مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ))، كما أن كل عامل في باب من أبواب الإيمان له ابتلاؤه الخاص به، فابتلاء العلماء في الشُّبهات والصدع بالحق، وابتلاء العابد بالشهوات والرغبات، وكلما ارتقت علوم المرء زاد ابتلاؤه في إدراك الحق وبلاغه، وكلما ازداد العابد عبادة كلما وقف له الشيطان أكثر، يُزيِّن له ويفتنه.

أمّا لو سأل المرء عن مقدار الفتنة التي تقارن الإيمان في رحلة أهله فهي مذكورة في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾[52] ولو جمع المرء بين الآيتين لرأى أن مكان كلمة الإيمان هنا يُقابلها آية البقرة كلمة ﴿تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾؛ ذلك لأن هذا هو مطلب المؤمنين وهو زادهم في تحمل المشقات وتكاليف الإيمان.

في مجال الابتلاء ينبغي الحديث عن وجوده حين تصبح الدار دار إيمان وهجرة، كما ينبغي الحديث عندما يصبح المرء مؤمنًا مهاجرًا، فالديار تُبتلى وتُفتن وتُمتحن كما يُبتلى الإنسان، وفي هذه السورة ذكر الله الأمان الحاصل للحرم في آخر السورة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[53]

فالديار ميزانها ابتلاؤها من المنافقين؛ لأنهم يرون الإيمان وأعماله هو سبب الضر الذي يلحقهم، وقد كشف الله ذلك في سورة النساء بقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾[54]؛ لأنهم يرون أن أعمال المؤمنين من جهادٍ وإقامة حدود وهجرة الناس إلى ديارهم مما يُكثِّر الأعباء والأعداء يُلقي علهيم تكاليف شديدة، فيومُ حصارٍ، ويوم جهاد، ويوم اغتيال للمسافرين والساعين منهم، فلذلك يجلدون أهل الإيمان بأنهم سبب المصائب والبلاء، وهم لا يريدون هذا الإيمان ولا تكاليفه، فيكون جزعهم سببًا لزيادة الثقل على المؤمنين، وهو ثقل مضاعف لأنه في جَنَبَات المرء، كما له خطورته المضاعفة كذلك. الديار تُبتلى مع الإيمان، وانتكاسة الديار والقرى أشد من انتكاسة امرئٍ لم يصبر على تكاليف الإيمان فارتدَّ فأبعده الله، لكن

[52] البقرة : 214
[53] العنكبوت : 67
[54] النساء : 78

انتكاسة الديار والقرى هو إذهابٌ لمشروع الإيمان ومُهمة قيادة الحياة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ لَمّا كان مجرد القول لا يكفي فلا بُدّ من بيان حقيقته، هل هو صدق أم كذب، ها هنا الصدق والكذب ليس في وصف القول، فإن قول الإيمان هو صدق مُطابق للواقع في نفسه، لكن هل ادِّعاء الإيمان صدق أم كذب؟ والله ﷻ يعلم السر والخفاء كما يعلم الظاهر والعلن، لكن هذا كله على القاعدة النبوية الشريفة ((اعملوا فكلٌّ مُيسرٌ لِما خُلِقَ له)).

ولأن نتائج الإيمان في الدنيا عظيمة الأمر وهي في الأخرى أعظم فلا بُدَّ أن ينالها المرء لِما يعلم من نفسه حقيقة، وهذا لا يكون إلا بالعمل والإثبات، وإلا لجاز لكل واحد الأعداء، فبطل الاصطفاء وانتفى التَّفاضُل.

وذِكر سنن التاريخ مع الإيمان وابتلاء أهله مُهمَّة في صياغة الإنسان المؤمن، وخاصة حين وقع البلاء، فإن المرء حينها يحتاج أن يرى موقعه، لأن الشيطان ينهال عليه بالوهم والوسوسة بالباطل، وسلاح الشيطان في هذا الوهم هو السؤال عن عزة الإيمان ووعوده بالنصر والتمكين وأين هي؟ فهاهو يرى نفسه مُحاط بالضعف وغَلَبَة خصومه عليه، فإن تذكر أن طريق النصر والنجاة والعزة هذا سبيلها وطريقها هانَ عليه ذلك، وهو يعلم أنه كلما طال النفق يعني اقتراب النور، لأن لكل شيء نهاية مُضادَّة للحال الذي هو فيه، أمّا الوهم الآخر الذي يُحيط به لحظة البلاء فهو ظنه أن الله تخلَّى عنه أو ودَّعه، فإن تذكر أن ما فيه إنما هو اختبار لازم برحمة الله عليه هانَ عليه ما هو فيه.

استحضار المرء لتاريخ السابقين في البلاء لحظة البلاء يعني أنه جزء من سلسلة الإيمان، وقد أكرمه الله في الانتظام بها والدخول في حَلَقاتها، وهذا يوجب الثبات القلبي وشكر المنعِم، كما أن هذا الاستحضار يكشف عواقب صبرهم من فرجٍ ونصرٍ وتأييد فيحصل اليقين أن هذا لن يدوم بل هو إلى زوال، فهاتان قوتان، قوة الأمل وقوة اليقين، يُحيط بذلك دلالة الابتلاء أنه قُبِل في مدرسة الإيمان ووصفه وحقيقته يجعله ذلك قوةً تصمد في هذه الفترة العصيبة.

اليقين أن هذا البلاء إلى زوال، وأن ما بعده خيرٌ منه يمتحن في كل يوم يشعر المرء فيه أن الطريق قد طال، وأن الأمل بنهاية النفق تضعف شعلته، وهذا شيء بشري وصفه القرآن في سورة البقرة ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وفي سورة يوسف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾[55]

ولذلك فإن واقع الابتلاء ليس تمثيلية يُمارسها المرء وهو يعلم حدودها وجوانبها، بل إن أعظم ما فيها هي وقوع

[55] يوسف : 110

ما لا يتوقعه المرء، إذْ يأتيه البلاء من حيث لا يحتسب، وتأتيه ألوانه بما لا يتوقع، وهو لا يعلم متى تكون العاقبة، فتزيد على قلبه ونفسه الضغوط حتى يبدأ التساؤل: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾

فهل تظن أن يوسف الصديق عليه السلام كان يعيش رحلة يعلم حدودها ومنعطفاتها وعواقبها؟ لا والله، لكنه كان يعلم أن العاقبة للمتقين، فلو عشتَ معه لظننتَ أن نهاية الألم ستكون بهذه الأيدي السعيدة التي تلقَّفتهُ شاريةً له وهي تقول: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[56] يعيشُ في ظل عزيز مصر على هذا المعنى من الكرامة والاعتناء، وفجأةً يأتيه بلاء آخر ليس بسبب حب أبيه عليه السلام به بل بسبب جماله، فيثبت ويصبر وتثبت براءته فيظن أن الأمر قد انتهى بقول العزيز له ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[57] لكن تتابع الموج لا يكُفّ، فيدخل السجن، وهي موجة تهدم كل هذا الاعتناء الذي لَقِيه من هذا البيت، بيت عزيز مصر، فيكون بعض الأمل حين يؤمِّل للناجي أن يُخبر عنه ملك مصر ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾[58]، وفي هذه الكلمة ما يدل أن أملًا كبيرًا كان في قلبه أن الفرج قد اقترب، وتمضي الأيام والشهور وهو يرقب باب السجن أن ياتيه الخبر حتى تمضي السنون ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[59]، يعني قد دبَّ اليأس من أن يأتِ الفرج من هذا الطريق الذي أمَّله، لكن اليقين أن العاقبة للمتقين لا يزول.

ما الذي استقر في قلب يوسف الصديق عليه السلام حتى إذا جاءه الذي نجى فسأله عن رؤيا الملك فلا يذكر له مرة أخرى بأن يذكره عند الملك؟ بل ولا يذكر الله أنه عاتبه أن قد نساه.

قد يقول قائل: عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، فما أدراك أنه ذكّره فلم يذكره الله في القصة؟

إن من قرأ قول يوسف الصديق عليه السلام للناجي حين جاءه يستدعيه للملك علم أن يوسف قد صَلَب قلبه ولم يعُد يتشوَّف الفَرَج من طرق يظنها أو ينشدها، بل هو اليقين وكفى، وعلى الله الاتكال؛ ذلك لأنه قال له: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[60] فهذا باب من الرجاء قد انقطع، لكن الرجاء بباب الله لم ينقطع.

فالابتلاء ليس باختيارك، لا زمنًا ولا حدثًا ولا وقائع، ولو كان كذلك لما كان ابتلاءً حقيقيًا، كما أن الابتلاء لا تكون عقدته كما يظن البعض في بدايته ثم يبدأ بالحل والتخفيف على طريقة الروايات والقصص، بل إن قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ وكذلك ما وقع ليوسف الصديق عليه السلام

[56] القَصص : 9
[57] يوسف : 29
[58] يوسف : 42
[59] يوسف : 42
[60] يوسف : 50

ليدل أن البلاء ليس له معيار واحد يجري عليه، فقد يكون كذلك قويًا عاليًا ثم يبدأ بالانحسار، وقد يبدأ هينًا ثم يبدأ بالصعود والارتفاع حتى الذروة ثم ينقضي، وقد يمر في حالات متعددة يهون ويكبر، ثم يهون ويكبر حتى يتحقق الوعد، كل ذلك هو من سنن الابتلاء، فسيرة النبي المصطفى ﷺ تدل على هذا المعنى سواء كانت سيرته في مكة أو المدينة؛ ذلك ليتحقق معنى الابتلاء في أجَلِّ معانيه حين يصاب به المرء على وجع لا يعرف فيه إلا شيئًا واحدًا، وهو أن يصبر ويصبر حتى ينجلي.

معرفتك تاريخ الابتلاء تمنع عنك أن توقع نفسك في نمطٍ واحد تطلبه، أو ترى نفسك فيه، فإن صور الابتلاء لا يوجد لها نسق واحد جرَت في كل التاريخ، بل إن قصص الله في القرآن مع أنبيائه لتدل على هذا المعنى، وما على المرء إلا الاعتبار بالعواقب لا بأفراد الحوادث، فليس لها وجه واحد والقول بهذا خطأ في الفهم وجهل بتاريخ الابتلاء، لكنه – للأسف – هذا غالب على فهم الكثيرين.

إذا كانت هذه القاعدة تُطرح ابتداءً للمدعو ليلتحق بركب المؤمنين فإنها في ظاهرها عند البعض مُنفِّرة من الالتحاق، حتى إن بعضهم – كما ذكر بعض أهل العلم – ليرفض كقاكات الإيمان مخافة أن يُنصب له امتحان الابتلاء، فيُقال لهؤلاء: إن سلعة الله غالية، وقد أجاب الله على هؤلاء بقوله: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، فالذاهب عن الإيمان مخافة تكاليفه هو الخاسر، وأما الإيمان فبضاعة لا تخضع لقانون العرض والطلب، بل حذر الأنبياء أقوامهم من مشاعر الباطل في هذا الباب فقال الله عن موسى عليه السلام ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[61]

بل هناك تحذير آخر له تعلق من وجه آخر بنفي غرور المرء أنه أفضل الموجود أمام عرض الإيمان، أو أن رفعة الإيمان مُختصة بشخصه فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[62]

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[63] فهذا مَقامٌ لا كسادَ فيه، بل عليه التنافس، فالذاهب عنه لا يُنقص قدر المِقام بل هو الخاسر المغبون، ثم إن رفع هذا الشعار في بداية السلوك يجعل الداخل فيه ابتداءً هم أصحاب العزائم، وهؤلاء هم من تُقام بهم مُهمَّات الإسلام ووظائفه، وهم قواعد الحق وأبنية الشوامخ، وأما ما نراه من انتكاسة البعض وضعفهم فإن سببه هو جهالات لمفهوم الابتلاء، إذْ أن الكثيرين منهم

[61] إبراهيم : 8

[62] المائدة : 54

[63] مُحَمَّد : 38

يأتون في هذا الطريق من باب الحماس فإن طال عليهم الطريق لم يَصمُد حماسهم ولم يُسعفهم عِلمُهم في رد شبهات الشيطان الوافدة مع البلاء وتنوُّعه.

وقد يَفِدُ على الأفهام القول بأن الإنجاز والبناء لا يكون في البلاء بل يكون في السعة، فإن استقرار الإنسان والأمم هو الذي يعطيهم فسحة تحقيق أهدافهم في البناء، فالبلاء يُضاد هذا ويمنع الإنجاز والبناء، فكيف للسجين أو المطارَد أو المعذَّب أن يُنجز للحياة مطالبها لتصنع صناعة الإيمان في تحقيق مطالب الأُمم كالأمان والإطعام والحياة الطيبة؟

وهذا اعتراضٌ مَبنيٌّ على تصورٍ مُخطئ لمفهوم الابتلاء والفتنة، فقد تقدم أن الابتلاء ليس نسقًا واحدًا فهناك ابتلاء يَسبقُ التمكين كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[64] وهو الذي قاله الشافعي رضي الله عنه: "لا يُمَكَّن الرجل حتى يُبتَلى."

وهناك فِعلٌ هو لا بِناء وهو الابتلاء عينه، فالجهاد هو فعل بناء يتم فيه إدخال الناس في دين الله أفواجًا، ويقع به إزالة عُمُد الجاهلية وطواغيتها، وهو في نفس الأمر ابتلاء وفتنة لحقيقته عينها ولِما يقع فيه وبه. ثم لو تفكرتَ بما وقع لأهل العلم من الرحلة والطلب لرأيتَ أن كل أبنية العلم في تاريخ أمتنا كان وسيلتها هو خَوْض رجال هذا العلم غَمَرات الابتلاء والتحمُّل؛ حتى تحقق لهذا العلم وجوده ثم وراثته، فعزل الابتلاء وتحمل المشاق عن البناء نفسه ناتج عن عدم فهم الابتلاء على وجهه الصحيح، لكن لما يكون الناس في فترة ما فإن حديثهم عن الابتلاء يَنْصبُّ على نوع هذه الفترة وابتلائها الخاص بها فيظن السامع أن هذا هو المفهوم الكلي للابتلاء، والأمر ليس كذلك.

ثم إنه قد ثبت في التاريخ الإنساني أن ما تحقق بجهد ومشقة هو الثابت الباقي للأمم، وأمّا ما كان سهل المنال فهو ذاهبُ الأثر ضعيفُ الثبات، فهذه كتب العلم إنما وضعها أصحابها في أُتون الألم والمشقَّة، وكتب مدادها بالعرق حينًا وبالدم حينًا، فنالت القبول الإلهي ومحبة الخلق، فهذا تاريخ الكلمات وهي تحمل القيم، وهذا تاريخ الرجال وهم يزرعون المعاني، ولذلك فالابتلاء هو مادة الروح لأي بناء في عالم القِيَم والمعاني حتى تكتسب قوتها فتملك حق الحياة. ولما كان أمر الآخرة هو المقصود الأول للوجود الإنساني فإن كل بناء لا قيمة له أمام ما يبنيه الإنسان من حسنات وحب إلهي وديار في الجنان، وإن أخطأ المرء هذه القاعدة فإن تقييمه للأعمال صلاحًا

[64] السجدة : 24

وفسادًا لن يكون حقًا ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أمّا واقع الابتلاء في حياة البشرية فهو مُشكِّل وجودها، فالابتلاء هو الذي يصنع التدافع الذي يُحقق زوال الباطل واستقرار الحق في الأرض، وهو الذي يُعمِّق وجوده في إرث البشرية، وهو الذي يصنع للحق أَلَقَهُ ونورهُ ليُقبل الناس عليه؛ ذلك لأن البشرية في جوهرها تَحِن إلى البطولة وإلى الصبر وإلى الثبات على المبادئ، حتى أولئك الذي يُعارضون قِيَمك فإنهم في دواخلهم يُثمِّنون مواقفك، وهذا ما يجعل الحق ثابتًا في الأرض له رجاله والأوفياء له.

كما أن لكل ابتلاء تخصصه في قيام الحياة، فابتلاء الهجرة هو من يُشكِّل الأمم على الوجه الذي قدمناه، وابتلاء الجهاد هو الذي يحقق قيام الحق وزوال الباطل أو عدم استقراره، وابتلاء كلمة الحق والصدع بها هو الذي يحقق اهتزاز الباطل وضعفه ثم انهياره، فهكذا إنما يَتشكَّل الوجود من خلال رحلة الابتلاء التي قدَّرها الله مُلازمةً للحق ومقارنةً له.

الخروج من مواقف الابتلاء هو خروج من صناعة التاريخ والأمم؛ إذ قد مرَّ على الوجود الكثير من الدواب التي تأكل وتشرب وتتسافد وتعيشُ في نظام القطيع الصامت لكنها لم تترك وراءها إلا العظام البالية والرُّمم القذرة، وحتى هذه تتآكل وتذوي وتذهب.

هكذا حين يقرأ المرء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بمفرداتها التاريخية يعلم معنى جريان سُنّة الابتلاء، لا لمجرد الفهم العام لها، لكن بإدراك معنى تاريخ أي قضية من قضايا الإنسان بل الوجود؛ لأن المفاهيم لا تُدرَك معانيها إلا بإدراك تاريخٍ ووقائع هذا التاريخ، وكلما اتسعت دائرة المرء في معارف هذا التاريخ كان أكثر إدراكًا لحقيقتها، لهذا كان القرآن فسيحُ الجانب في شرح تاريخ الإيمان والدعوة إليه، وحال الناس فيه وعاقبة كل فريق.

في موقف الفتنة والابتلاء ومراقبة أقدار الله تعالى الواقعة على المؤمنين الصادقين يقفُ المعاند ضاحكًا هانئًا أنه بعيد عن ذلك كله، فيأتي الْتِفاتُ القرآن إلى هؤلاء قائلًا: ﴿وَأَنتُمْ﴾ فتغوص الضحكات مع غُصص الحلوق أنهم ليسو بمنجاةٍ من العذاب، فيقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾، فهل إتيان المؤمن إلى حضن الرحمة الإلهية مُؤمنًا مُصدقًا مُستجيبًا لدعوته يجعله عرضة للفتنة والابتلاء، أمَّا المعرض

الذاهب الهارب من الدعوة والاستجابة يجعله بعيدًا عن يد الله فلا تطَاله ﴿سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾.

لكن لما كانت هذه السورة بمُجملها خطابًا للمؤمنين فإن هذا الالتفات في الخطاب للكافرين يمرُّ مرورًا سريعًا؛ لأن مواطن الحديث عنهم في أماكن أخرى من كتاب الله تعالى، أما هنا فيكفي أن يُقال لهم: وأنتم لن تهربوا هروبًا يقع به السبق الذي يمنع إدراككم، بل ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾[65]

هذا كما أنه خطاب للمُعرضين الكافرين، فهو خطاب للمؤمنين أن الجهة الأخرى الخالية من البلاء حالًا فهي ستُلاقيه مآلًا، وقد حذر الله المنقلبين من جَهالة عدم تقدير الموقف الذي سيُلاقونه بكفرهم، فشتان بين عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة، وشتان بين غَضَب الناس وعذابهم وغَضَب الله وعذابه في الآخرة؛ ولذلك جاء في آية قادمة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[66] وهذا من غرورهم وجهالاتهم وعدم تقدير حق الله ولا عذابه حق القدر، فمهما كان العناء والعذاب في الدنيا فإنه على انقِضاء مهما طالَ، وأمَّا عذاب الله فهو المقيم الذي لا ينقطع. هذا إذا حملنا هذا التهديد على الوعيد الأخروي، مع أن الآية عامة في التهديد والوعيد فإن عذاب الله مُلحق بالكافرين في الدنيا كما قال الله تعالى على لسان المؤمنين مع الكافرين: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾[67]

ثم إن الكافر والمعرض مهما بدى للناظر المخدوع أنه سعيدٌ هانئ غير مُتألم فإنه في الحقيقة لا يخلو من عذاب أو ألم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[68] وإن ذاق بعض النعيم حينًا فإن هذا من مَكْر الله تعالى حتى إذا أخذه كان الأخذُ شديدًا مؤلما كما قال النبي ﷺ: ((إن الله ليُمْلي للظالم حتى إذا أَخَذه لم يُفْلته))

وكما جاء في الحديث: ((مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح تصرعها مرة وتعدلها مرة، حتى تهيج، ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة على أصلها، لا يفئها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة)) وهذه الأحاديث من فوائدها العِظام أنها تُبين بعض الفوارق بين واقع الفتن التي تُصيب الكافرين وديارهم وممالكهم، هذا مع جريان الله تعالى سننه على البشر بعدلٍ وحكمة واضطراد، هذا مع أن عزة الفتن التي تُصيب الكافرين وديارهم وممالكهم، هذا مع جريان الله تعالى سُنّته على البشر بعدل وحكمة واضطراد، هذا مع أن عزة المؤمنين ليست علوًا في الأرض لكنها شهادة على الخلق، وأما غيرهم فهو أهل علو وفساد وإفساد.

وفي هذه الآية إنذار من مكر الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ فإن الإنسان لغروره وجهله تكون

[65] الرحمن : 31

[66] العنكبوت : 10

[67] التوبة : 52

[68] طه : 124

السيئة الأولى منه على حذر من أن تقع عليه عواقبها بعذاب الله، فينظر ماذا يكون، فيرى أن ما هُدِّد به من السخط لا يقع، فيأتي الثانية ويخفُّ حذره، وهكذا تكون كل سيئة مُلقية لوَهْمه في الضلال والأمن الخادع من مكر الله تعالى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ وهي مع كلمة ﴿يَسْبِقُونَا﴾ تدل أن كل سيئة خطوة في الهروب والركض في وهمهم الشيطاني الخادع، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[69] فخدعهم صبرُ الله عليهم، ولم يروا يد الله التي تمكر بالعصاة والمستهترين بأمره؛ ولذلك فإن المنافق يرى معصية الله كذبابة استقرَّت على أنْفِه فقال بيده طاردًا فطارت، وأمَّا المؤمن فإنه يرى ذنوبًا كالجبل المعلق على رأسه فهو يخافه ويخشاه.

ومما تحتمله هذه الآية أن عمل السيئات عند هؤلاء هو مكرهم الذي يَبْنون به منازعة الإيمان، من جلب الأنصار وتهيئة الجيوش وإعداد العدد والأموال، فيظنُّون أنهم بهذا هم في أمان من وعيد الله لهم، كما قال تعالى عنهم في سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[70]، فيكون قوله ﷻ هادمًا لهذا الجهل بأن يد الله ستنالهم ولا وِزْر لهم، وقد أحسن الإمام البَغَوي عندما عَدَّ هذه الآية ردًا على من جعل الوعيد الإلهي للتهديد ولا حقيقة له، فإن هذه الآية تبين حقيقة الوعيد وأنه لاحقٌ بهم ولا شك، والله أعلم.

ويقع في قلبي لهذه الآية معنى آخر لا أعرفُ أحدًا قال به من قبل، ولذلك فإني أقوله – وأستغفرُ ربي من الجهالة والضعف والذنب – وهذا المعنى يتعلق بربط هذه الآية من الوعيد الحاصل فيها ضد المعرضين بحقيقة البلاء الواقع على المؤمنين، وأن الوعيد فيها يُحتمل للدنيا والآخرة كما تقدَّم، وأن فتنة المؤمنين هي سبب حصول الوعيد فيهما، فأمّا أن الفتنة للمؤمنين تكون سببًا لعذابهم في الدنيا، فلأن الفتن والابتلاءات هي طريق النصر والتمكين ودمار الكافرين، وأما أنها سبب لعذابهم في الآخرة فإن ما يفعلونه هو من إقامة الحجة عليهم ومن زيادة لا عذاب عليهم، فتكون هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ هي إحدى علل البلاء الواقع على المؤمنين.

أقول هذا، فإن صحَّ هذا المعنى في الآية فهو من الله تعالى، وإن كان خطأ فهو من نفسي، مع أن هذا المعنى حق وهو مذكور في كتاب الله في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[71] فقد جعل الله وجود الإعداد سببًا للهداية والنصر، وهو باب في العلم معروف، ليس هذا موطن شرحه. وهذا المعنى إن صح للآية فإنه يكون قريبًا من معنى قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

[69] المجادلة : 8
[70] هود : 8
[71] الفرقان : 31

كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[72] فإن أقرب معاني هذه الآية هو أن الله سابقُ الكافرين ومدركهم بتعذيب الله لهم على أيدي المؤمنين بالقتال والإعداد له، وهذا ما يدل عليه سياقها وسباقها، فإن الآية التي قبلها هي قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[73] وأمّا التي بعدها فهي قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[74] واقتصار المفسرين على معنى سبق الله بتعذيبهم دون بيان أن هذا العذاب هو ما أمر الله بهم المسلمين من الجهاد والإعداد لهم غير تام.

وهذا المعنى يُقارب سباق آية سورة النور بقوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[75] فإن الآية تُبيّن عدم سبقهم و مَنَعتهم في الحياة الدنيا، ذلك لِما يصيبهم فيها من العذاب بما تقدم من آيات لهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[76]

وأمّا أن واقع التاريخ يُثبت أن ما يُوقعه الكافرون على المؤمنين من البلاء هو سبب من أسباب إهلاك الكافرين فهو مذكور في كتاب الله تعالى، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[77]

وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[78]

وكذلك ما يفعله الكافرون هو سبب إغراء الله تعالى للمؤمنين بعذابهم وقتالهم كما قال: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[79] وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾[80]

والله أعلم وأستغفر ربي. هذا وفي كلام ابن كيسان عند ابن عطية ما يُشير لهذا المعنى.

---

[72] الأنفال : 59
[73] الأنفال : 58
[74] الأنفال : 60
[75] النور : 57
[76] النور : 55
[77] الأنبياء : 70
[78] النمل : 50-51
[79] التوبة : 13
[80] الفتح : 25

وهذه الحقيقة القرآنية بأن الكافرين لن يسبقوا، ولن تفوتهم العقوبة الإلهية، حتى وهم في قوتهم وضعف المؤمنين ستمثل لها الآيات القرآنية القادمة في السورة بالأقوام السابقين من قوم نوح وإبراهيم وشعيب وعاد وثمود وقارون وفرعون وهامان، ومن خلال ما قدَّمت لك من قراءة السورة من خلال اللفظ والآية وصبغة السورة كلها سترى أن القرآن في هذه السورة حين مثل لهذه الحقيقة التي تقدمت بها السورة ثم أتى إليها بعد آيات تَلَت هذه الحقيقة وهي ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أن قال الله تعالى هذا اللفظ عندما أتى على ذكرهم فقال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾[81] و ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾[82] لتعلم حقيقة الأسلوب القرآني في امتحان قارئه، وفي أن حقائق القرآن لا تأتي على المعرض عنه، بل لا بُدّ من أن يعيش المرء بكله معه، روحه وقلبه وعقله، ليعطيه آثاره وبعض علومه.

﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ الإيمان بالآخرة هو مُخُّ الإيمان وعموده بعد الإيمان بالله تعالى، ولا يستقيم سلوك ولا موقف ولا فهم إلا بحضور هذا الإيمان، والوعود الدنيوية في القرآن قليلة الذكر مقابل الوعود الأخروية، والوعيد بالعذاب في الدنيا قليل مقابل الوعيد بالعذاب في الآخرة، والقرآن الكريم يجعل الكفر بالآخرة هو كفر بالله، ولا يستقيم إيمان بالله إلا بالإيمان بالآخرة ولقاء الله، بل إن سبب الكفر بالله هو عدم الإيمان بالآخرة كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾[83]، فالشياطين لا تجد آذانًا وإصغاءً إلا لهذا النوع البشري الكافر بالآخرة.

ويُقابل هؤلاء الذين يصغون لكتاب الله ويؤمنون به، ووصفهم الإيمان بالآخرة كما قال تعالى قبل هذه الآيات: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[84] ولذلك فإن القرآن لا تنفع موعظته إلا للمؤمنين بالآخرة كما قال في السورة: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[85]

كما أن القرآن يقرر أن علاقة الإيمان بالشر بين شياطين الإنس والجن، وبالتالي ضلالات الأفكار والمذاهب

[81] العنكبوت : 40
[82] العنكبوت : 39
[83] الأنعام : 112-113
[84] الأنعام : 92
[85] الأنعام : 51

والأديان لا تكون إلا بسبب غياب الإيمان بالدار الآخرة فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾

فهكذا هي أُسس الضلالات والرضا بها واقتراف الشر والفساد.

وأثر الإيمان بالدار الآخرة كثيرٌ في كتاب الله تعالى، بل إن هناك سور عنوانها الأول هو الإيمان بالآخرة كسورة سبأ، فإن مُفتتحها ومُنتهاها ومباحِثها إنما هو بيان أمر الآخرة وعَظَمتها وموقف الناس منها وحالهم هناك، وكذلك سورة قاف وسورة الحاقة والمعارج وهل أتى على الإنسان والنبأ واستقصاء ذلك يطول، وتأمل قوله تعالى في سورة الرعد تعلم أنه لا يُمكن الإيمان بالله دون الإيمان بالآخرة ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[86]

والإيمان بالدار الآخرة ليس مجرد معرفة عقلية بل هو في حقيقته عِماد كل موقفٍ للمسلم في هذه الحياة الدنيا؛ ذلك لأن أوامر الله تعالى في حقيقتها امتحان للشهوات والرغبات العاجلة مقابل معنى حقيقي يؤمن المرء به أن هذا الاختيار لأمر الله تعالى دون غيرها إنما هو ليومٍ آت يجرى به على هذا الموقف، وتشتدُّ وطأة الامتحان لهذا الإيمان حين يكون الصبر على المكروهات والفتن والابتلاءات، فإن حقائق القلوب تظهر جلية حينذاك، وتختبر الحقائق وصِلابها، فإن كان مفهوم الدار الآخرة مجرد كلمات ومعارف لفظيَّة أو عقلية مع عدم امتزاجها بالحب والرغبة والرضا فإنها سرعان ما تَذْوي وتذهب أمام العاجل المرئي والمرتجى.

اشتراك الإيمان بالله مع الإيمان بالدار الآخرة؛ ذلك لأن الدار الآخرة هي دار الجزاء الإلهي، وبها يتجلَّى الحب الإلهي لعباده المؤمنين كما يتجلَّى البُغض الإلهي لعباده الكافرين، فمن أحبَّ الله أحبَّ عطاءه وجزاءه المبني على حب الله الذي يسعى لتحصيله، وهو حب مبني على رؤية النعم ومخافة النِّقَم والعذاب.

وأعلى من هذا أن يُحب الله لجلالِ وجمالِ صفاته ﷻ، كما هو شأن الحَمْد، فإن حمد الله درجات، فحمد المنعم لإنعامه عظيمٌ ومهدي، وأمَّا ما هو أعظمُ منه فالحَمْد للجلال والجمال كما يقول العابد: "الحمد لله كما يَنْبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه."

ركن قيم الإسلام أنها تنطلق من قيم العبودية لله، أي الاستسلام له وعدم التكبر والإباء الذي وقع فيه الشيطان ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾[87] وكون هذه القيم معيار جمالها هو الثواب الأخروي، والمعاندون الكافرون قديمًا

---

[86] الرعد : 5

[87] البقرة : 34

وحديثًا إنما يرفضون الإسلام وقِيَمه لهذين الأمرين، فهم على استعداد أن يبحثوا مع المسلمين هذه القيم على أساس كونها صادرة من الله فيجب امتثالها، بل على أساس مِعْيارِيَّة صلاحها للحياة وعقلانيتها – كما يزعمون – ولذلك فأشد ما يؤذيهم من هذا الدين أن أهله والقائمون به لا يقبلون المساومة على قيمه على أساس نِسبيَّة الحق كما تفرضها رؤى العقول البشرية المتنوعة والمختلفة، كما أن القنطرة الأخرى التي تملأ قلوبهم حَنَقًا على أهله أنهم لا يأبهون للدنيا وما فيها عندما تكون مُصادمة لإقامة حق الله تعالى، أو يكون هذا الفعل يحقق السعادة الأخروية.

الإيمان بالدار الآخرة لم يَعد في زماننا هذا مجرد قيمة تفرق بين مؤمن وكافر، لكن صار هذا الإيمان يميز بين مناهج تنتسب للإسلام لكنها تؤنسه – أي تجعله بمِعْيار القبول الإنساني ورؤاه – وكذلك تقطعه عن الدار الآخرة ويُبين منهج الوارثين لهذا الدين حقًا وهم لا يأبهون لكل ما يُصيبهم ويُصيب العالم إن كان في ذلك عَمَار للدار الآخرة.

قد يعترض على هذا من يقول بـ: أن الدين الإلهي الحق لا يخرب الدنيا وهو يعمر الآخرة، بل هو يعمرهما معًا، وهذا القول صحيح، لكن لا بُدَّ من فهم معنى تعمير الدنيا، فإن هذا المفهوم غلب عليه الرؤى الجاهلية، فعمار الدنيا عندهم هو ما يرونه من مُتع وشهوات يعيشها الكافر في محيطه وحياته، بل إن بعض المسلمين يأمل بأن يكون عمار الإسلام لدنياهم أكثر مما يعيشه الكافرون في الشهوات والمتع، وهذا المفهوم في عمران الدنيا خطأ ولا شك، وحين يصبح هذا المفهوم هو الغالب فإنه يصبح عند فقهاء العصر جواز تحليل الحرام من الربا بحجة الضرورة إذا كان المستفتي بتركه الربا ينقص مليونه الذي يملكه إلى أقل مما هو عليه ولو بمقدار عشرة آلاف، ولو سألتَ هؤلاء عن هذا الترف الذي ينشدونه جميعًا لحبهم للآخرة الذي يزعمون أين هو من حياة خير هذه الأمة رجالًا ومجتمعًا وهو مجتمع النبي ﷺ وخلفائه الراشدين لَما وجدت، بل لوجدت أن ما يتخيلونه من مجتمع الترف الإسلامي إنما هو المجتمع الإسلامي في تراجع عزته وانحسار قوته وذهاب سلطانه.

أمر آخر، فإننا في زمان البناء لمجتمع الإسلام الذي به تزول الغربة الثانية للإسلام وفي مراحل بناء الأمم إنما تكون التضحيات والبذل، وهذه التضحيات لا يقوم بها على وجهها في دين الله إلا من آمن أنه يبني آخرته في كل قطرة عرق وكل لحظة ألم وكل جَلْدة صبر. هذه الكراهية التي يحملها أعداء الإسلام من بني جلدتنا ضد قيم الإسلام لأنها قيم أخروية في صبغتها تجعل بعض المسلمين لإرضاء هؤلاء يُلْغون هذا المفهوم في الحوار والمقابلة والدعوة. والكفرة من العَلمانيين وغيرهم يدركون هذا المكان الضعيف عند مُفكّري الإسلام المعاصرين ولذلك هم يستقطبونهم في الاندماج معهم ضد مفهوم الجهاد والاستشهاد والذي هو الواقع الحقيقي الوحيد الذي يُزيل

وساوسهم وضلالهم وممالكهم كذلك.

مفاهيم الجهاد والهجرة والشهادة وتحمُّل الصعاب وخَوْض الغَمَرات، قوة مددها أن أهلها يؤمنون بالآخرة وبالجنة وبالحور العين وبرؤية الله، فإن خَلَت عن هذا المدد سَهُل وضعها على طاولة المفاوضات والمساومات وستُغلب ولا شك في أول مُنازلةٍ في عالم المصالح الدنيوية، ولذلك هم يسمّون هذا الإيمان وهو يمدّ هذه المفاهيم أنه فكر عَدَمي، أي أنه ذا رؤية أخروية مدمرة لهذه الدنيا، وهذا كذب فإن صلاح الوجود الإنساني لا يكون إلا بقطع قواعد عمد الشر وسلطانها، ولّما يكون أمر البناء والجهاد في الابتداء فإنه لا يمكن تثبيت قواعده الأولى إلا من خلال هؤلاء الذي لا يلتفتون وراءهم في جهادهم وهجرتهم وشهادتهم، فبناء الآخرة مع فوات الدنيا بكل ما فيها للمرء ليس فكرًا عدميًا، بل إن العناية بالدنيا وشهواتها دون الآخرة هو الفكر الحيواني البهيمي كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[88]

ثم إن هذا الإيمان هو الذي يصنع معيارية قِيَم الوجود؛ ولذلك هم يرفضونه لأنه يُعد أي إنتاج إنساني خالٍ من الإيمان بالآخرة، مجرد هواء لا قيمة له كما قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[89]

وبهذا الرفض تتشكّل دوائر الوجود وأحكامه، فهناك دار الإيمان وهناك دار الحرب، وهناك المؤمن وهناك الكافر، وهؤلاء الكفرة لا يريدون إلا خليطًا بهيميًا واحدًا لا يخضع لهذه القيم على أساس هذه الفوارق الإلهية.

ثم تأتي النتيجة التي تشعرهم بالقهر، والخَنق الذي يُفجّر أعصابهم حين يعلمون أن هذا المسلم في ضعْفِه وفَقْره وهوانه عليهم يشعر في قلبه أنه أعزُّ وخيرٌ منهم، وأن كل ما هم فيه هو بعض من جناح البعوضة، ويزدادُ تفجُّرهم غضبًا وقهرًا حين يعلمون أن هذا المسلم يُؤمن أن الجنة بعد الموت له وللمؤمنين، وأما هم فهم أهل نار وغضب الجبار، فمصير آباءهم وأمواتهم الذين يقيمون لهم مظاهر التبجيل والافتخار إنما النار والعذاب، وأن مصائر هؤلاء الذين دخلت بهم العيون فاستصغرتهم إنما مقرّهم رضوان الله وجنته.

هكذا يُصبح الإيمان بالآخرة يقرر حالة وموقفًا بين المؤمنين به والكافرين به؛ ولذلك كان مما نَقَمَتْه قريش على رسول الله ﷺ ما أبانَه لهم من مصير آبائهم والذين هم مصدر فَخرهم وعزَّتهم، والحال اليوم هو الحال؛ ولذلك فإن

[88] الفرقان : 44

[89] التوبة : 69

أعداء الدين يسعون جاهدين لإلغاء العلاقة بين البشر على أساس الدين والإيمان بالله واليوم الآخر، لأنهم يعلمون أن هذا هو وقود خصومهم من المؤمنين، وإلا فإن هؤلاء الخصوم لا شأن لهم في كل مواقف التاريخ بالعدد الزائد ولا بالعدة القاهرة، هم كذلك في التاريخ وكذلك اليوم.

ويستجيب لدعوتهم الزنادقة ممن انتسبوا لهذه الأُمَّة بأسمائهم وأنسابهم وقد الْتحقوا بالكافرين في أديانهم ومناهجهم، وتشرَّب بعض العاملين للإسلام هذا السُّم فجرعوا منه جُرعَات كلٌ بحسَبِه، حتى صار ذكر الدار الآخرة عندهم أمرٌ مُخجل مَعيب لا يصلح للتحرير السياسي ولا للوذعي المفكر، فلم نَعُد نحن وإياهم إلا خصومًا على أمور تختصم عليها الدواب من المأكل والمشرب وما شابهها.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ هو أمانٌ للمُبتلين أن العواقب ليست بعيدة مهما طالت الطريق، فإن لحظات الألم تطول على الإنسان، كما أن لحظات الفرح تقصر، وهذا سرٌّ من أسرار الزمن المدرَك في الناس، مع أنه في هذه الحياة وبالنظام الشمسي هو وحدة واحدة، لكن النفوس وتقلُّباتها تجعل الزمن نسبي بين الناس، فحين يقعُ البلاء والفتنة فإن اللحظة تطول كأنها الدهر، ويصبحُ الزمن ثقيلًا في سَيْره وتنقُّلِه، فهذه الآية تطمينٌ لهؤلاء أن لقاء الله قريب، وأما ما يرجونه واقع فما عليهم إلا الصبر واليقين، وفي هذه الآية دليلٌ على رغبة المؤمنين بلقاء الله، فهم يُحبونه ويطمعون في رؤيته ورحمته ونعيمِه، كما أنهم ينظرون إلى كل ما يفعلونه إلى أنه مُجازى من الله عند لقائه.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ دليل على هذا المعنى، فإن هذا الإله العظيم الحق هو سميع لِما يقوله هؤلاء المبتلون، عليمٌ بما يقعُ عليهم، وهو لا يتركهم في ابتلائهم تَخليًا عنهم ولكن امتحانًا لقلوبهم وأديانهم حتى يُجازيهم على ذلك كله.

هذا اليقين القَلْبي على لقاء الله تعالى ومُجازاته، وكذلك اليقين على سمعِ الله وعلمه لِما يقعُ لهم يهوّن عليهم الطريق، ويقطعُ عليهم وساوس الشيطان أنهم قد ودّعوا وتركوا وشأنهم، بل هم يراقبون يد الله في كل ما يقع لهم، ويعلمون أن الله يفرحُ لصبرهم وثباتهم، ويزدادُ بغضه لأعدائه وأعدائهم؛ وفي هذا كله ليقيم الحُجَّة على الخلق، ويحقق الحكمة في الوجود، ولتُنصَب الموازين يوم القيامة وكل امرئ شهيد على نفسه، وهذا من أعظم ما يحقق قوله تعالى للملائكة لما خلق آدم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[90]

إن الذين جاؤوا إلى هذا الطريق وهم يَرجون الدنيا أو سُرعة الوصول إلى أهدافهم دون ابتلاءٍ وتمحيص سُرعان

[90] البقرة : 30

ما ينقلبون على أعقابهم، وتقصر بهم الطريق، فيتساقطون، وإن أعظم أسباب هذا السقوط هو غياب مصلحة الآخرة في قلوبهم وذهاب اليقين من قلوبهم بأن الله يُراقب كيف يعلمون كما قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[91] ولو نظر هؤلاء إلى عين الله ومراقبته، فكانوا من المحسنين والمؤمنين بالوعد الإلهي لصبروا حتى يحكم الله بينهم وبين خصومهم، وحينها سيعلمون أن العاقبة للمتقين.

ثم إن هذه الفاصلة القرآنية ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لتتلاءم مع ما تقدم من القول واختبار القول في القلب وجودًا وعدمًا، فإن القول في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾ يُقابلها سمع الله لها حين يقولها العبد. وقوله: ﴿الْعَلِيمُ﴾ يُلائم اختبار الله لهذا القول بقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾، وهذا لأن كل فاصلة قرآنية إنما تتلاءم مع ما سبقها من الأمر. كما أن إثبات العلم المطلق لله ينفي ما يطرأ على الأذهان أن قوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ إنما هو عِلمٌ مستأنف قد سبق ضده، ذلك بأن الله يعلمُ ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

إن الصبر على الابتلاء الواقع بسبب الهجرة والجهاد والدعوة والشهادة إنما يكون لإقامة دين الله تعالى في الأرض، فهل هذا يعني حاجة الله لهؤلاء في هجرتهم وجهادهم ودعوتهم وشهادتهم؟ يأتي الجواب من الله تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، إنه ﷻ مع مجازاته العباد على صبرهم وبلائهم وحسن ثباتهم إلا أنه ﷻ غنيٌّ عنهم، وهو إذْ يُحرِّضهم ويُرغِّبهم في الطاعات فإنه يفعل ذلك رحمة بهم؛ لأن في ذلك خيرٌ لهم في عاقبتهم ودنياهم، وهذه الآية تقطع على النفوس المريضة جهلها أنها حين تُعرض عن الله ﷻ إنما تعرض استكبارًا وغِنى عن غيرها، لأن حقيقة الأمر أن هؤلاء هم المغبونون لا غيرهم، وهي – أي الآية – تعليمٌ للمؤمنين أنهم في أيام ولحظات صبرهم إنما يَجنون الخير لأنفسهم، ولما كان المرء مُركبًا على الحرص على ما ينفعه، وهو ضنينٌ بذلك فإنه حين يتذكر أنه يجني لنفسه الخير فإن هذا يُصبِّره ويدفعُه للثبات والعطاء.

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، وإنما تُعرفُ نفسية المتكلِّم من كلامه، والعرب لما عَلِموا أن هذا الكلام خرج من إلهٍ عزيزٍ قادرٍ قاهرٍ غنيّ، لما رأوا عزة الكلام الذي تكَّلمه، فإنه ﷻ في رحمته على عباده حين يرغِّبهم في التوبة وحسن العمل إنما يرغِّبهم من باب الرحمة لا الحاجة، وحين يتوعدهم إنما يتوعد توعد العزيز القادر، فهو كلام إله عظيم؛ ذلك لأنهم يحسون في البشر مهما كان غناهم الفقر في كلامهم، ويرون الضعف منه مهما كانت قوتهم،

---

[91] سبأ: 21

ويحسون الرهبة في أشعار الشجعان، وهكذا يبقى الإنسان فقيرًا ضعيفًا هَلوعًا مهما بدى متفوقًا أو عزيز الجانب، لكنهم لما سمعوا القرآن علِموا أن قائله عزيزٌ لا يُرام، غنيٌّ غِنى ذاتي لا يزول، وقائم على غيره بالوجود والإمداد، وهذا عندي هو أعظم ما علِمَت به العرب أنه كلام الله ﷻ.

هذه الآية ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ هي إحدى رسائل الأنبياء لأقوامهم، فقد قالها موسى لبني إسرائيل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وهو إذْ يبيّن غناه عنهم إلا أنه يرغبهم في شكره وطاعته فقال ﷻ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[92] وقال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۝ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[93]. لقد أقامَ الله في هذه الآية لفظ الجهاد مقام موقف المؤمن من البلاء، وهذا من تكريم الله للعبد الصابر على البلاء، وبهذا يُصبح أي موقف ابتلاء للمؤمن بسبب إيمانه بالله والدار الآخرة هو جهاد في سبيل الله تعالى، فالهجرة جهاد والصبر على ما يأتيه منها جهاد، وإنفاق المال فيها جهاد، وهذا كله مبسوط في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾[94] إلى قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[95]﴾ وفي الحديث أن (أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)، وهذا من باب تعظيم الجهاد، إذْ أن تسمية الأمور العظيمة بهذا الاسم تكريمًا لها إنما يدل على عِظَم هذا الوصف وجلالة موقعه.

ومن غرائب جهالات أهل العصر أنهم يذهبون إلى ما لَحِق بالجهاد من أمور تعظيمًا لها، ورفعًا لشأنها في نفوس المسلمين ليجعلوا من ذلك طريقًا لإلغاء حقيقة الجهاد الأولى، وهي القتال في سبيل الله تعالى؛ ذلك لأن الجهاد له حقيقة أولى هي الأصل، وهي حقيقةٌ عظيمةٌ لا يدرك شأنها عمل آخر كما في الحديث حين سُئل عما يعدل الجهاد فقال ﷺ: ((لا تستطيعونه))، ثم يلحق به من الأعمال التي تُعظم بهذا الاسم فيأتي بعضهم ليجعل اللاحق أصلًا؛ إذهابًا للأصل وتقليلًا من قيمته، وهذا من واقعهم لأنهم يتخذون هذا الطريق منعًا من إقبال المخالفين لطرائقهم من سلوك سبيل الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام.

هكذا كوَّنت هذه الآيات قاعدة الظرف الإيماني وواقعه في الحياة، وهي تخفي وراءها حقيقة عَظَمة الإيمان وأجره

[92] الزمر : 7

[93] النساء : 131-132

[94] التوبة : 120

[95] التوبة : 121

ونتائجه، فهذا الإيمان الذي هو أعظم قِيَم الوجود ليس بأهون ما يجتنيه المرء ويكتسبه، وإذْ كان كذلك فإن ظرفه هو ظرف الابتلاء والامتحان، ولا تثبت حقيقته حتى يُمتحن أمام محبوبات الإنسان وشهواته، فيرجح على كل شيء، حينها يستحق المرء هذه القيمة التي أقيمت من أجلها السموات والأرض، ونُصبت من أجلها الموازين، وخُلقت لحال الناس معها الجنة والنار، فهكذا تتقرر هذه القاعدة، ثم تبرز تاريخيَّتها واضطرادها؛ لأن الإنسان هو الإنسان حيث هو في تاريخه وجغرافيته، ولأن حقيقة هذه القيمة حقيقة واحدة منذ خُلق آدم إلى قيام الساعة، فالله ﷻ هو الحق الذي خلق الزمان والمكان والحوادث، وهو محيطٌ بها ولا يحيط به شيء مما خلق، لأنه أكبر ﷻ كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[96] وقال: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ﴾[97]؛ فقِيَم الإيمان ليست من الخلق الذي يَبلى ويتغيَّر، وحال الناس معها هو حالٌ واحد، كما قال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[98] والعلاقة بين هاتين الفرقتين قائمة على المدافعة والمنازعة، ومن غير خَوْض في تاريخ هذا الصراع لأن له مكانًا آخر، فإن البادئ به والمجرم الذي لا يتورَّع في ذبح وقتل مخالفيه هم أعداء الأنبياء، يشهد لهذا التاريخ والواقع، فالدين ليس هو سبب الكراهية كما يزعمون، بل أعداء الدين هم أهل الإجرام ورفض الآخر، ويكفي المؤمن أن يقرأ سورة البروج ثم يتلو فيها قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[99] وحيث جعل الله الابتلاء للمؤمنين قدرًا مقدورًا فإن هذا يدل على هذا المعنى؛ وهو أن تاريخ الدماء وسفْكها إنما أهله هم أعداء الرسل الذي جاؤوا بدعوة الإيمان والتوحيد.

وهذه الآيات إذْ تُبيّن القاعدة واضطرادها فإنها تبني أهل الإيمان بناءً لا يضعف، وتمدّهم بمدد لا يَنضَب، وهو وقود رحلة الإيمان والصبر عليه ألا وهو الإيمان باليوم الآخر، ثم هي تبين عاقبة المجرمين الذين يُعرضون عن الإيمان وينازعون أهله ويفتنونهم بالعذاب والمكاره، وهي مع إعطاء هذا المدد والوقود تبنِّيهم في معارفهم ونفوسهم لتستقر معاني العبودية عندهم، وأنهم في ذلك عبيدٌ لله، وهو الغني، فحيث أتوا إلى طاعته فهم العبيد، وحيث أعرض العرض فهو الخاسر، وكل ذلك لا يغير من حقيقة أن الله غنيٌّ بذاته، وله ملك العالمين لقيامهم به لا لقيامه بهم، وهي في تربيتها تُبين أن لهم الجزاء، وحيث عملوا وجاهدوا وصبروا فسيلقون ذلك، إذْ كل صرخة ألم أو قطرة عَرَق أو دفْقَة دم ستؤوبُ أجورها إليهم، فنتائج أعمالهم إليهم لا يشاركهم الرب في شيء منها كما هو حال الطواغيت مع أوليائهم، فإن هؤلاء الأتباع لهؤلاء الطواغيت يَتعبون ويُرهقون ويَبذلون ثم يؤول كل جهدهم إلى طواغيتهم، وإن كان لهم شيء فإنما هو الفُتات، ففي التجارة مع الله هذا ممنوع بل هو سبحانه يعطيهم أكثر مما بذلوا ﴿مَنْ جَاءَ

[96] الأنعام : 103

[97] البقرة : 255

[98] التغابن : 2

[99] البروج : 8

بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[100]

فيا لهذا الإيمان من معاني لا يحيط بها بيان إلا بيان الله، ولا يشاركه في هذه المعاني أي تجارةٍ من تجارات البشر، ويكفي أن يعلم المرء صفات ربه حتى يَعلَم عظمة الإيمان والتجارة معه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ إن كل حقيقة من حقائق هذا الدين لتُعلن أنها بنفسها وبارتباطها بأصل هذا الدين وهو الإيمان بالله والدار الآخرة لا يمكن أن تلتقي مع قِيَم الجاهلية، فما يُرغب له كلام الله الحق، وما يدفع عباده إليه، وما يرفع شأنه عندهم ليس هو ما يبغيه من لا يؤمن بالله والدار الآخرة، فحين تُلقَى أعظم ما يحققه هذا الدين لعبيده على أسماعهم تكون على شأن من الرفع غير ما يفكر به الآخرون، فحين تكون أعظم ما ينشده المؤمنون هو هذا الوعد الإلهي بتكفير الذنوب يعلم حينها جوهر هذا الدين ومراتب العطايا والمنن، هكذا يَتبين أصل الفارق بين ما هو ديني وما هو شهواني بَهيمي.

عندما سَمِعتْ الجن القرآن فحملوا خبر نزوله لأقوامهم كان الوعد الذي قدَّموه مقابل الإيمان به هو مغفرة الذنوب والنجاة من العذاب ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[101]

وهذا نوح عليه السلام يُقدِّم لهم هذا العرض العظيم الذي لا يدرك قيمته إلا من علم قيمة المغفرة الإلهية ونيل الرضوان، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[102] وهو وعد الله للمؤمنين بمُحَمَّد ﷺ كما قال تعالى في سورة مُحَمَّد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[103] بل هي دعوة جميع الانبياء لأقوامهم كما قال تعالى في سورة إبراهيم، بعد أن ذكر الله رسل قوم نوح وعاد وثمود، ذكر قولهم لأقوامهم عندما رفضوا دعوتهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ

[100] الأنعام : 160
[101] الأحقاف : 29-31
[102] نوح : 1-4
[103] مُحَمَّد : 2

وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[104]

وهو أول مِنن الله على رسوله ﷺ لما قال له ﷻ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾[105] ومعنى الفتح بالنصر الإلهي لا يكون إلا بهذا كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[106] ولذلك فإن الله سمَّى دخول الجنان ومغفرة الذنوب الفوز العظيم ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[107] فهذه أعظم الأرباح التي يجنيها الإيمان بالله تعالى، وهي لا قيمة لها إلا عند المؤمنين الذين يخشون عذاب الله تعالى والذي سببه هو الذنوب. هكذا من أول الطريق مع هذا الدين يُعاد ترتيب المعاني في النفوس، فحيث يشدُّ أصحاب الأهواء إلى الأعمال من خلال شهواتهم وأهوائهم، يشدُّ المؤمنون إلى تحمُّل التكاليف والصبر على المكاره من خلال ترغيبهم بمغفرة الذنوب، فإن كانت النفوس جاهلة صغيرة، ولا تعرف لأثر الذنوب ووقوعها على الإنسان شأنًا فإنها تستصغر هذا ولا ترعاه.

أمّا المؤمنون فقد قال الله عنهم في ذكرهم للساعة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾[108]، فأين هؤلاء الذين يريدون قِيَم الإسلام قيمًا إنسانية مشتركة، فيجمعون بين المؤمن والكافر في صعيدٍ واحد لاشتراكهم في «ظواهر» بعض المعاني؟ أين هؤلاء من تعظيم ما عظَّمه الله، وأين هم من حقائق هذه المعاني ومقاصدها؟

إن هؤلاء الأصفياء الذين يعرفون معنى الحسنات والسيئات، إذْ هي عُملتُهم التي يتداولون بها، فمن أجل الحسنات يُنفقون أموالهم، ومن أجل تحصيلها يبذلون أرواحهم ونفوسهم، وخوفًا من السيئات يتَّقون الذنوب اتقاء صاحب الثوب الثَّمين وهو سائرٌ بين الأشواك والأوساخ، فهؤلاء فقط يعرفون قيمة هذا الوعد الإلهي للمؤمنين، أما الذين لا يعرفون معاني هذه الكلمات ولا قيمة أوزانها، ولا نتائج تحصيلها، فهُم الدواب الذين يدوسون على الدُرر، ويبشون لرزم البرسيم والشعير، وهكذا يعيش الناس من خلال هذه المعاني، إذْ تكون الحسنة والسيئة معيارًا لحركة المؤمنين، والشهوة العابرة معيارًا للمخالفين المعرضين.

في هذه الآية قذفٌ لكلمة الإيمان والعمل الصالح، فحيث سارت الحالة من ابتلاء، إلى جهاد، إلى إيمان وعمل

---

[104] إبراهيم : 10
[105] الشرح : 1-2
[106] الفتح : 1-2
[107] الفتح : 5
[108] الشورى : 18

صالح دلَّ على أن هذه الحالة جليلة المقام، فحيث تعددت الأسماء العظيمة لأمر واحد كان هذا الأمر عظيمًا عند مُتكلِّمه.

إن الابتلاء والصبر عليه جهاد في سبيل الله تعالى وهو إيمانٌ بالله، وهو عملٌ صالح، فحيث هو ابتلاء فهو اختبار للصدق، وحيث هو جهاد فهو تَزْكية للنفس، وحيث هو إيمان وعمل صالح فهو تكفير للذنوب ونَيْلٌ للحسنات. ثم إن العبور من خلال مرتبة الابتلاء يكون وصف الإيمان قد استقرَّ على الناجح الصادق في دعواه، فخرج من مرتبة الامتحان إلى درجة الوصف الذي يستحقه أنه مؤمن صادق الإيمان.

أمّا قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فقد جعلها ابن جرير على معنى: أن ما سيلاقونه من الجزاء على عملهم الصالح في إسلامهم خير مما كانوا يُلاقون من جزاءٍ على أعمالهم حال شركهم. وهذا المعنى دقيقٌ خَفِي؛ ذلك بأنه يقتضي أن يَعْلم المسلم أن ما يفعله في حال إيمانه من أعمال صالحة إنما يكون أثرها في الحياة الدنيا وفي الآخرة خيرًا مما يعمل الكافر من هذه الأعمال نفسها وهو في حال كفره، وإن فهم هذا فإن القول بأن المسلم عليه أن يعمل دون أن ينظر إلى النتائج تحتاج إلى تقييد؛ لأن البعض يحتجّ بها على مفاسد تقع لأعمالهم، أو إخفاقات لجهودهم، فإن رُوجِعوا على ذلك اتخذوا هذه المقولة حُجّة لذلك، وهذه الآية على معنى ما قاله ابن جرير – رحمه الله – تردُّ على هذا الأمر وتُبْطله، فإن المرء إن عمل عملًا صحيحًا – أي موافقًا للحق الشرعي والقَدَري – وهو مؤمن فإن من العدل الإلهي أولًا، ثم من إحسانه على المؤمنين ثانيًا، أن تحقق هذه الأعمال أكثر مما تحقق هذه الأعمال لو عملها الكافر.

إذن لماذا لا يكون الأمر كذلك في تجارب كثيرة في التاريخ والحاضر؟

ابتداءً يجب فهم سُنَن الله القدرية في أمرِ المدافعة والصِراع، كما يجب فهم النتائج وتقييمها على معيار الإيمان والحسنات والدار الآخرة، كما يجب فهم الإيمان الُمدافِع على وجهه الصحيح. أمّا فهم الإيمان في أمر المدافعة، فإن الإيمان الذي يُحقق الواقع المادي هو الإيمان الذي شَرْطُه القوة، وهذا بيّنٌ في قوله ﷺ: ((المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير)). وفي قوله ﷺ عن النساء: ((ناقصات عقل ودين)). وفسّر نقصان الدين بترك الصلاة والصيام حال حَيْضِهن، فقد تخلَّف عنهن وصف الدين في مقامه المعادل لهن عند الرجال لعجزهن القَدَري لا الكسلي، من إتيان الصلاة والصيام، فدلَّ على أن الإيمان ليس وصفًا قلبيًا فقط، بل وصفه الذي يتحقق به الفعل أن يكون مع القوة اللازمة للفعل، وهي قوةٌ لا تكون كذلك حتى يكون عندها قوةُ مُنازعة الخصم.

ولا فَرقَ في تحصيل النتائج من تخلُّف القوة بسبب عجزٍ قاهر أو كسلٍ إرادي مقدورٍ على دفعه، فالنساء لا يستطعن دفع عجزهن والمانع من الصلاة والصيام ومع ذلك فقد تخلَّف الفعل فتخلَّف الوصف فكن ناقصات

دين، فالنتائج تغيبُ لا لوصف العلم والمعرفة واليقين القلبي، بل تغيب كذلك لغياب القدرة، وبهذا لا بدّ من دراسة النتائج على ضوء هذا الأمر، فلا يجوز أن تُعلَّق النتائج في غَلَبة الكافرين في جولات الإيمان معه على ضعف الإيمان العلمي والقلبي فقط – كما يفعل البعض – بل يجب النظر إلى موازين القوة، فحين قَتَلَ ذو النواس أهل الأخدود لم تكن هذه النتيجة لقلَّة إيمانٍ ويقينٍ وعلم، بل كانت لعجزٍ قَدَريٍّ غيرُ مقدورٍ على دفعه في لحظته.

أمّا تقييم النتائج على معيار الإيمان والحسنة والدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، فأهل الأخدود وإن قُتلوا وحُرّقوا إلا أنهم أهل فَوْز بهذا المعيار، وصاحب ياسين مُنتصر بهذا الميزان حتى مع استشهاد وقتل أعدائه له، وهكذا يكون خراب مزارع الصحابة الأنصار بسبب الجهاد هو قمة التنمية الإيمانية، وهذا ما لا يرضاه الذين يرون في الجهاد خسارة لتجارتهم ومزارعهم، فالمصالح بين الفريقين لا تلتقيان في مِعياريّتها، فقد قامت أسواقٌ للجهاد في أوقاتٍ مُتعدَّدة وأماكن مُتفرقة، كان الرابح الأعظم فيها هو الشهيد والمنِفق والمجاهد، وكان الخاسر الأكبر هو منتحل الذكاء الذي زعم أنه يعرف عواقب هذه الأسواق الإيمانية فلم يضع نفسه وماله في غَمَراتها، فأقبل على دنياه وهو يسخر من أولئك الذين استجابوا لنداء الإيمان والجهاد والشهادة، وعند الله تُنْصَب الموازين.

أمّا فَهْم سُنَن الله القدريّة في الصراع، فإن حلقة الإيمان هي حلقة واحدة مع تعدد الأسواق، فما عَدَّه الناس هزيمة لسوقٍ من الأسواق الإيمانية إنما هو محطة قوة وارتقاء وبناء لِما بعدها، ولا يُمكن أبدًا أن تنتصر قوة مبتدئة أمام قوة مستقرة إلا من خلال جولات، ثم يكون التقييم لا للجولة، بل للنتائج النهائية، والمرء يُدرك أن جولات الإيمان ضد الباطل في التاريخ الإنساني كانت تمر على هذا المعنى، فلو قرأ المرء قوله تعالى في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[109]، دون أن يُجريها على المعنى الذي قُلنا لكذب بها؛ لأن واقعها عنده أن المسلمين من أتباع عيسى لم ينتصروا على عدوهم في التاريخ قبل مُحَمَّد ﷺ.

وهكذا فإننا نرى أن أسواق الإيمان كانت محطات نصر إيماني وعلمي وهي تسير إلى مستقرها الذي يكون فيه وعد الله تعالى بإزالة الغربة الثانية: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[110]

---

[109] الصف : 14

[110] الإسراء : 51

ففهم المرء لسُنَن المدافعة في بناء الإيمان وقِيَمِه في الوجود ليست على معاني الباطل التي تقوم كموجات عالية تغري الناي ثم ما تلبث أن تزول وتنهار.

إن الذين ينتظرون عيسى عليه السلام أو المهدي وهم أهل الحق ليسوا أولئك الذين يعتقدون في واحد من البشر مهما كان نبيًا أو صالحًا قادرًا على تحويل الأمم الميِّتة إلى أمم حية، والأمم الخاملة إلى أمم قوية في لحظة واحدة، بل المؤمنون بوعد الله أن الغربة ستزول على يد هؤلاء هم أولئك الذين يشقُّون الظلام بأشعة النور وهم يرسلونها شُعاعًا وراء شعاع متى يكون التمهيد للقائد الآتي.

إن الانتصار العظيم هو مجموع انتصاراتٍ صغيرة، وهو لا يأتي إلا على الثابتين على الطريق مهما نزل بهم من بلاء ومشقَّة، ومهما لاقوا من صِعاب ومخاطر. إن هذا كله لا يمنع من التقييم، لكن التقييم الذي يحافظ على القِيَم الإيمانية، لا ما يقع به الجاهلون من تقييم يؤدي بهم إلى تبديل المناهج ومهادنة الجاهلية، فيكون التقييم لحسن أداء في إتيان أمر الحق فيما يأتي، لا لتبديل الحق وتَشرُّب مناهج الباطل، ولا لإدخال اليأس أن الباطل هو قَدَرٌ لازم في تمكُّنِه وسلطانه ولا يزول.

إن شعار المؤمن الذي لم يتشرف بمنزلة الشهادة في سوقٍ من الأسواق أن يقول: مرة أخرى سأعود وسأكون أكثر وعيًا وصلابة، وسأجعل من كل سوق منارًا وهاديًا للوارثين من بعدي حتى يتحقق الوعد الإلهي الصادق.

إن الذين يَعدّون الشهداء والمنفقين والمجاهدين في الأسواق التي لم تُحقق النتائج النهائية للمدافعة بين الحق والباطل قد غُرِر بهم وخسروا! هؤلاء أهل جاهلية في القِيم والمعاني، وهم على معنى أتباع الطواغيت والباطل الذي يتعاملون مع حسابات الربح والخسارة لِما يعطيهم أسيادهم.

أمّا الذين يُتاجرون تجارة الصدق مع الله فلا يحسبون هذه الحسابات، فهؤلاء الأنصار بذلوا الدار والأموال والأرواح ثم ماذا كان لهم في هذه الدنيا سوى قول النبي ﷺ: ((اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار)) وقد ((زادَ الناس وقلَّ الأنصار)) – كما قال الحبيب المصطفى –، فهل خسر هؤلاء تجارتهم مع الله؟ إنه لا يقول هذا إلا كافرٌ بالله وباليوم الآخر.

ولذلك فيخطئ من يظن أن أسواق الإيمان هي محرقةٌ للمؤمنين وأجيال الإيمان وشباب الإسلام، وهم يقولون هذا لخطئهم في سنن التاريخ والتغيير، ويزداد خطؤهم عندما يظنون أن جولات الإيمان بعيدًا عن مركز الوعد الإلهي

– كما هو في سورة الإسراء – هو مضيعة للوقت، وهذا خطأ، وفَهْمٌ غيرُ سديد، ولو قرؤوا السيرة النبوية في هذا الباب لرأوا أن الفتح المبين لم يكن هو بداية الطريق بل نهايتها، هذا مع أن الجميع يرى كيف أن عُصبة الإيمان وطائفة الغرباء المنصورة قد وصلت إلى وعي علمي وقوة يحسب لها الحساب من خلال هذه الجولات التي يسمونها «محرقة الشباب»، وهذا من قلة الوعي على التاريخ وتَشكُّل الموجات الكبيرة والمؤثرة.

إن أُمَّتنا في واقعها المعاصر لم تصل لهذا الحد من الهوان والضعف في يومٍ ولا يومين، ولا في قرنٍ ولا قرنين، ولم تُسحَق حتى غزاها الكفر وتمكَّن منها في جَوْلةٍ واحدة، وإن إعادتها إلى أن تكون هي الغازية والمؤثرة والفاعلة لا يكون في أمدٍ قصير، فالأُمَّة وهي في عصرها الوسيط عندما غزاها الصليبيون فاستوطنوا أرضها قد احتاجت إلى عقود حتى تحقق لها الوعد بإخراج الكفار من أرضها، فهل ما نحن فيه اليوم محتاج لأقل من هذا حتى يتحقق الوعد بإزالة الغربة الثانية؟ هذا مع أن دولة الإسلام كانت يومها قائمة، وهي اليوم غائبة ولا وجود لها.

إن من قال: إن على المسلم أن يعمل دون أن ينظر إلى النتائج. دافعه الحق في دوام الثبات والعمل مهما لاقى وعانى، لكن تفسيره للأحداث وعلاقتها مع النتائج غير سديد، إذْ أنه كما قال رسول الله ﷺ: ((لا يأتي الخير بالشر)) فما هو خير وشرعي لا تكون نتيجته إلا خيرًا، لكن الفعل الإنساني ونتائجه له أحكامه وقواعده التي يجب إدراكها وتفسير الأحداث من خلالها.

ثم كيف يقول القائل أن النتائج التي تتحقق من أسواق الإيمان أقل من الفعل المبذول لها، بل كيف يطرأ هذا الوِرْد الغريب على ذهن ذكي يعرف حركة التاريخ وسننه وقواعده؟

إن كل سوقٍ خاضَه أهل الإيمان جهادًا واستشهادًا وبذلًا لم يكن إلا مجابهةً مع الكفر كله، مجابهةً تقومُ بها ثُلّةٌ مؤمنةٌ أمام جحافل الكفر وإمداده وماله وخبرته ومَكْره، حيث كان وما زال يخلى بين المؤمنين وهم ثُلّة قليلة، إذْ أُمَّتهم في لَهْوها وشهواتها وغَيِّها، والمحسن منهم من يتابع أخبار هذه الثُلّة، وهم يحفرون في الصخر، ويجاهدون حق الجهاد، وأمامهم طواغيت الردة وطواغيت الكفر كله في العالم كله، يكيدون كل الكيد ويمكرون كل المكر، بما يعلمه المتابع وبما يخفى عليه؛ لأن حلقات الكفر اليوم ليست منفصلة، كما أنهم يعلمون أن خروج حلقة من الحلقات من أيديهم يعني سقوط غيرها، ولذلك فمن يظن أن طائفة جهاد ضد حلقةٍ من حلقات الردّة أو الكفر الأصلي هي تُجابِه هذه الحلقة فقط هو مخطئٌ في القراءة والدراسة والوعي على الحدث.

وإذا كان الأمر كذلك فإن المنصف يعلم مقدار المشقة، ويعلم أنه لا يمكن لسقوط هذه التوابع من حلقات الردّة حتى يضعف المركز وتختل قدراته فيسهل الاستفراد بالهوامش والتوابع، وهذا الأمر ليس هو حال النبي ﷺ يوم

أن أقام مركز الإيمان المنطلق للآخرين في المدينة المنورة، فإنه ﷺ لما أرسل رسائله إلى الملوك بعد صلح الحديبية تَبين لنا أن هرقل وهو على تخوم الجزيرة العربية في الشام لم يكن يعلم بأمر النبي ﷺ شيئًا كما يُبيّن لنا حديث أبي سفيان مع هرقل لما استدعاه إليه يسأله عنه.

فمن علم الواقع علم مشقة هذه الغربة، ومشقة إزالتها؛ ولذلك فإن الغرباء اليوم لهم أضعاف أجور الأوائل – كما قال ﷺ –[111] لأنهم لا يجدون على الحق أنصارًا كما وجد الغرباء الأولون، فقد وصلت معركة الإيمان اليوم ضد الكفر أن اجتمع على الغرباء وطائفة الحق كل طوائف الكفر الأصلي والمرتد، وهي حالة لم يشهد لها التاريخ بهذه الشراسة والتضييق والعناء مثيلًا، حتى إن ما يقال لها الحركات الإسلامية في طَوْرها الأول كانت تجد تضييقًا في مكان فيفسح لها آخر، لكن هذا لا وجود له اليوم؛ ولذلك فإن القابض على دينه كالقابض على الجمر، فهنيئًا لهم ذلك، فإنهم وإن أنكرتهم النفوس المريضة، وعاداهم أتباع الشيطان، وتبرأ منهم أهل البدعة والانحراف فإني لأحسب أن الله يحبهم وقد رضي عنهم، وما عليهم إلا أن يثبتوا أن وعد الله تعالى لهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هو أحبُّ إليهم من كل كنوز الأرض وممالكها وسلطانها.

أمّا الذين يضحكون على هذا الوعد فقد ردّ الله عليهم في سورة المؤمنون فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[112] إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[113] وهذا المعنى كثيرٌ في كتاب الله يعرفه كل من قرأ كتاب الله وتدَبَّره.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[114]

---

[111] عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَنَّةَ , أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ((بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ)). قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: ((الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ , وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لينحازن الإيمَانُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا يَحُوزُ السَّيْلُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَأْرِزَنَّ الإِسْلامُ إِلَى مَا بَيْنَ هذين الْمَسْجِدَيْنِ، كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا)) [أخرجه الطبراني في المعجم الكبير, وعبد الله بن أحمد في المسند]

[112] المؤمنون : 101-103

[113] المؤمنون : 108-111

[114] العنكبوت : 8

هذا أول المعوقات الخارجية في رحلة الصبر على البلاء والفتن، فبعد أن بَنَت الآيات المعاني الداخلية وقوَّمتها، جاءت هذه الآية لتعالج مشكلة المسلم مع محيطه، وأول هذا المحيط هم ضحايا الفطرة وأعظم هؤلاء هم الوالدان، وقد ضرب الله أمثلة قرآنية لواقع الوالد المخالف، والزوج الكافر، والزوجة الخائنة لمبادئ زوجها الإيمانية، والولد المعرض، فقد ضرب الله مثلًا بإبراهيم الخليل في كفر والده، وضرب الله مثلًا بزوجة فرعون في إيمانها وطغيان زوجها، كما مَثّل ربنا بخيانة زوجة لوط في دينه، وزوجة نوح، وساق القرآن حالة ابن نوح عليه السلام في إعراضه وتكبره عن اتباع دين الحق، وهي تبين أن علاقة الإيمان أقوى من علاقة النسب والزواج، كما قال الله لنوح في سورة هود لما تساءل نوح عن ابنه في قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾[115] وهذا الوعد الذي ظنَّهُ نوح عليه السلام بإطلاق دون تقييد هو المذكور في سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[116]، فنسي نوح عليه السلام القيد، فتساءل عن الوعد، وهذا الذي وقع فيه نوح عليه السلام، ووقع فيه إبراهيم عليه السلام كما في سورة البقرة لما قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[117] فظنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام أن عدم العهد للظالمين يعني منعهم من الرزق الدنيوي كذلك فقال عليه السلام بعدها ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[118] فقيَّد الرزق بالإيمان في دعائه عليه السلام، فقال الله له: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[119]. فلما قال نوح عليه السلام مقالته، قال الله له: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[120]. فهكذا؛ جعل الله رابطة الإيمان أقوى من كل رابطةٍ فطريةٍ أو صناعية كالأب والابن والأخ والزوج والزوجة، وحين تتصادم هذه الروابط فإن الإيمان لا يقوم له أي شيء في الوجود، وهو إذْ يُقدِّم رابطة الإيمان فإنه سبحانه وتعالى يراعي الروابط الفطرية ويأمر بإقامتها على وجهها من الإحسان والفضل؛ ولذلك قدَّم الله أمره بعدم الطاعة لهم في الكفر والمعصية بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾، وهذا من أعظم الرحمة والإحسان والفضل. والأمر بالإحسان إلى الوالدين بهذه الصيغة جاء في آياتٍ أخرى كما في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[121] وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[122] وفي سورة الأحقاف في قوله

[115] المؤمنون : 27

[116] هود : 45

[117] البقرة : 124

[118] البقرة : 126

[119] البقرة : 126

[120] هود : 46

[121] الإسراء : 23

[122] لقمان : 14

تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[123].

وكل هذه السور نزلت بمكة إلا أن بعضهم استثنى آيات سورة الأحقاف هذه فجعلها نازلة في المدينة، وآيات سورة العنكبوت وسورة لقمان تتحدث عن المرء المؤمن حين يُقابل وَالِدَيْن كافرَيْن، أمّا آيات سورة الأحقاف فإنها تعكس الحال، ففيها أن الوالدين مؤمِنَيْن ويقابلان ولدًا عاقًا لا يطيعهما في الحق الذي يدعوان إليه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[124]

وكلُّ موطنٍ من هذه الآيات فيها فوائد تختص عن غيرها، ومن ذلك أن الله أمر المؤمن وهو يحسن إلى والديه ويترك طاعتهما في الشرك أن يلتحق بطائفة المؤمنين دونهما فقال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ﴾[125]، فصار سبيل المؤمنين أَوْلى من سبيل الوالدين، ولذلك لم يجعل الله الدِّيَة للوالدين الكافرَيْن المحاربَيْن إذا قتل ابنهما المؤمن خطأً كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[126] فذكر ﷻ الكفارة ولم يذكر الدِّيَة إلا إذا كان من قوم معاهدين كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾[127]، هذا مع ما منع الله من التوارث بينهما في خلافٍ معروف بين أهل العلم.

وفي هذه الآية من سورة العنكبوت والآية في سورة لقمان يُبيّن الله تعالى فيهما أن الحُكْم بالفساد والصلاح هو إلى الله تعالى لا إلى البشر وقِيَمهم في الدنيا، ففي هذه السورة يقول الله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[128] وفي سورة لقمان يقول: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[129]؛ ذلك لأنه في البيئة الفطرية يكون هناك قيم تعظيم الوالدين، ويكون تقييم الناس حسنًا وقبحًا من خلال هذا الميزان وما هو في معناه، بل إن الناس ينشؤون روابطهم وعلاقتهم مع الناس من خلال هذه القيم – أي قيم الآباء والأمهات –، فحين يستخدم الوالدان ثقلهما في هذا الباب لثني المؤمن عن طاعة الله وتنفيذ أوامره، فيكون في هذا شبه تدمير لقيمة الإنسان وواقعه، فيأتي التطمين الإلهي أن ميزان الأعمال لا ما يحكم به على البشر من خلال الواقع المختل بعدم إيمانه وطاعة الله، إنما الحكم لله تعالى، فإن جرى على المرء هذه الأحكام على المؤمن بتسميته ووصفه بأوصاف القبح والسوء إلا أن هذا لا قيمة له؛ لأن الأهم هي تلك الأحكام التي تكون لما يعود الناس إلى الله ﷻ.

[123] الأحقاف : 15
[124] الأحقاف : 17
[125] لقمان : 15
[126] النساء : 92
[127] النساء : 92
[128] العنكبوت : 8
[129] لقمان : 15

هذه قيمةٌ عظيمةٌ يعرضها القرآن في عدم الاهتمام بأحكام الناس حين تكون هذه الأحكام جاهليةَ المصدر بل يجب الاهتمام بأحكام القرآن حتى لو خالفها الناس جميعًا.

فذكْرُ هذا الأمر في الموطنين من هذه السورة – العنكبوت – وسورة لقمان يدل على عظم وقع الأحكام العشائرية والقبلية والأسرية والبيئية على الإنسان، فالإنسان مهما كان هو أسير واقعه في كثيرٍ من علاقاته وتصرفاته، وهو حريصٌ على الصورة الحسنة في هذا الواقع، فحين يحاول المؤمن التوفيق بين إيمانه الذي ينحاز إليه بلا تردد وبين إحسانه لوالديه الذي لا يمنعهما من تسميته عاقًا مع هذا الإحسان وهو يرفض طاعتهما في الكفر فتسري عليه أوصاف الجاهلية بسوء الخلق وقلّة الوفاء وعقوق الوالدين، فإن القرآن يُطَمْئنه إلى أنه ما ينبغي أن يشد انتباهه هو أحكام الله عليه لما يعود إليه فينبؤه هناك أحكام الحق والعدل.

ووَقْعُ ضغط الوالدين على المؤمن بصرفه عن الإيمان ثقيل جدًا؛ ولذلك قال تعالى عنه: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[130]، وهذا لا يدركه إلا المؤمن الذي يرى فضل والديه وقيمتهما في نفسه، وسَعْيه أن ينال رضاهما وحبهما.

واقع كفر الوالدين ومنعهما الإيمان عن ولدهما هو حالة اختبار وفتنة داخلة في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[131] فهذا من الفتنة والبلاء، وهو ضغط نفسي شديد، يتبعه ضغط اجتماعي وحياتي أشد، ثم إنه قد يكون في بعض الأحيان رفض الوالدين لإيمان ابنهما رفع للحماية عنه، وتَخليةٌ بينه وبين عذاب أعداء الله تعالى له، وهذا قد يقع حينًا وقد لا يكون.

خروج المرء من دائرة الولاية لأسرته ثم مجتمعه، هل يعني أنه لم يعد له مجتمع وبيئة ينتمي إليها؟ الجواب في الآية التالية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾[132]. فهذا نَسَبُه الجديد، وهذا محيطه الذي يُشكِّل عماد حياته وشكل وجوده، إنه الدخول في الصالحين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[133]، وكما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ

---

[130] العنكبوت : 8

[131] العنكبوت : 2

[132] العنكبوت : 9

[133] التوبة : 119

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[134].

أن تأتي هذه الآية عقب ذكر موقف المؤمن من عدم طاعته والديه في دعوتهما له للكفر؛ لتدل على ما قدمناه من معنى الصلاح والفساد في دين الله، وتدل كذلك مع الوعد بأن هذا المحيط الجديد والنسب الجديد هو أعلى وأعظم مما خسره من مُحيطه السابق الذي يقوم على قِيَم الجاهلية.

إن الدخول في الصالحين مقامٌ عظيم طَلَبهُ الأنبياء كما ذكر الله تعالى عن سليمان عليه السلام بعد أن سمع كلام النمل وفهمه، فقال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[135]. وهذه الآية ليست تكرارًا للآية التي سبقتها في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لكن فيها معنى زائد عن الأولى يُناسب ما قدمناه من معناها، فالتكرار ممتنعٌ في القرآن، وكلام البُلغاء بعيدٌ عنه فكيف بكلام الله تعالى المعجز، حتى لو بدى أن بعضه يؤكد بعضًا إلا أن التأسيس أَوْلى من التأكيد، كما هو معلوم من قواعد التفسير. وقوله تعالى: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ دلَّ على أن مخالفة الوالدين في باب الإيمان والكفر هو الصلاح لا ما يظنه البعض من قيمهم في الصلاح والفساد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[136]؛ هنا تَبرُز حالة مهمة وهي تُفهَم من هذه الآيات ومن قوله تعالى: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ إذْ تدل على أن الكفر يكون في الطاعة وليس في الاعتقاد فقط كما يحكيه بعض أهل البدعة الجاهلين.

فإن المرء لا يشرك بعد إقامة الحجة وبلوغ الرسالة إلا وهو يعلم أن شِركَه باطل، وأن التوحيد هو الحق، ولكن يلتحق المرء بالفتنة – وهي الشرك كما فسره حَبْر القرآن ابن عباس – بسبب أمور أخرى غير الجهل، منها هنا الخوف من البلاء، وعدم تحمل تكاليف الإيمان بالصبر واليقين على الوعد الإلهي. فقولهم هنا: ﴿آمَنَّا﴾ – بالله – هو قول العالِم به أنه حق، لكن هذا لا يجعله مؤمنًا إلا بأن يلتحق بأعمال الإيمان وبجماعة المؤمنين، ويصبر على الفتن التي تلحق هذا الركب أفرادًا وجماعات؛ ذلك بأن فتنة قومه له لا تجعله على إنكارٍ للحق الذي عَلِم صِدْقه،

[134] الكهف : 28
[135] النمل : 19
[136] العنكبوت : 10-11

بل تجعله يخرج من أعمال الإيمان وجماعة المؤمنين، وهذا ردةٌ عن دين الله تعالى، وأهل الكفر من الطواغيت لا يطلبون من الناس الكفر على معنى إنكار العلم بالحق أو الجهل به، بل إنما يطلبون الكفر منهم على معنى الدخول في طوائف الكفر وترك أعمال الإيمان والنكوص عن طائفة الحق، وهذا معنى تشرحه بيانًا جليًا سورة مُحَمَّد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[137] فكانت رِدّتهم في إطاعة الكافرين في بعض الأمر؛ ولذلك يظن بعض الجهلة أن الكفر الذي يطلبه الطواغيت اليوم هو تكذيب الإسلام وتكذيب الرسالة، وهذا لا يكون، بل إنهم يُصرون على هؤلاء أن يبقوا على إعلانهم بالإسلام والْتِزامهم بمناسِكِه التعبُّدية الظاهرية، وإنما يطلبون منهم ما قاله تعالى: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾.

ولذلك في هذه الآية من سورة العنكبوت ذكر الله صورةً خلفيّةً لواقع هؤلاء المفتونين المرتدين، وهي تُبيّن وجود جهاد ومدافعة، وهي كامنةٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ فواقع الحال بين الطائفتين الواضحتين هو واقع جهاد ومدافعة فيه النصر وفيه الابتلاء والفتنة.

وهناك قومٌ يُصدّقون بقلوبهم ما عليه أهل الحق ولكنهم دخلوا في بعض طاعة الكافرين، وهذا يكون بسبب مُتَع الدنيا أو بسبب الخوف من عذاب الكافرين له، وهنا في هذه السورة كان السبب هو دفع عذاب الكافرين عنه، ودفع الفتن عن نفسه وماله؛ ذلك بأنهم يرفضون أن يدفعوا ثمن الإيمان الذي يعتقدون صدقه في أنفسهم.

وهذه الآية لِمن تفكَّر فيها هي أشدُّ آيةٍ على هذا الصنف من الناس الذين يرفضون اللحاق بالمجاهدين، بل يطلبون الكافرين في بعض مطالبهم من البراءة من المجاهدين أو سبِّهم وذكر معايبهم أو إبطال دينهم من الجهاد الشرعي، ويظنون أن هذا القدر لا يُحقق ردّتهم ودخولهم في عذاب الله تعالى، ولو تأملوا قوله تعالى: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ﴾ لَعَلِموا جهالتهم، وخاصةً أن الأمرَ أمرُ نصرٍ وابتلاء، وهو لا يكون إلا الحكم على واقع الجهاد ليس غير.

في زماننا لا يوجد من طواغيت الكفر من يقول لك: سُبّ الإسلام واكفُر بمحمد وتبرأ من القرآن. بل إنك تجد كثيرًا من عُمد الطواغيت هم أهل صلاة وصيام وحج، ولكنهم داخلون في بعض طاعة الطواغيت فيما فيه جهاد ومدافعة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وهم في أفعالهم وأقوالهم ينصرون الباطل ويخذلون أهل الحق، ففي واقعهم يجتنبون إيذاء الكافرين لهم، وإن كانت العاقبة للمؤمنين لم يعدم من وجود شاهد له أنه كان على الحق في نفسه

[137] مُحَمَّد : 25-26

وعلمه وقلبه فيما يزعم. وأمّا الأعذار يومها فهي مبذولة كثيرة لكل المقصرين والمعرضين، كما تسمعها اليوم وغدًا، وهي موجودة في كتاب الله تعالى وتفضحهم.

هؤلاء تخدعهم أمانيهم بأن النجاة من عذاب الله سهل الحصول عليه بما هم عليه من أعمال لا علاقة لها بالنصر والجهاد والشهادة، وهذا الخداع أبطله الله بقوله: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

فالمدافعة إذن ليس إلا على باب هو مجال فتنة الكافرين له فيهن، أما أعمال الإسلام التي لا يُفتن المرء بها فإنها لا تصلح لدفع عذاب الله تعالى عنه يوم القيامة. فهناك عذابان، عذاب الله وعذاب الكافرين، وهما يصطرعان على عمل إيماني ﴿بَعْضِ الأَمْرِ﴾، فإن أطاع الكافرين به اتقاء عذابهم أصابه عذاب الله وعُدَّ منافقًا، وإن كفر بطاعتهم ورضي الصبر على بلائهم نجا من عذاب الله تعالى، وهذا في كل باب يفتن فيه المرء، وإلا فهل طلب المأمون من أهل العلم في فتنة خلق القرآن أن يكفروا بالله على معنى الكفر عند المشركين؟ أو أن يردوا الرسالة ويُكذبوها، أم أن الفتنة كانت على بعض الأمر؟

وهل طلب الكفرة العبيديون من علماء أهل السُنّة في مصر والمغرب أن يكذبوا بأن القرآن وحيٌّ من الله لرسوله ﷺ أم أن الفتنة كانت على بعض الأمر؟ هذا مع ما يعلم من شدة الفريقين من أعمال التعبد النُّسُكي من صلاة وصيام وحج.

والحال اليوم هو الحال، إذْ يتوهم البعض أن ما سُئلوا عنه من الطواغيت ليس كفرًا، بل هو لا علاقة به بالإيمان والكفر فيطيعونهم في مطالبهم ويزعمون أنهم مؤمنون لم يُغيروا اعتقادهم ولا دينهم، ورحم الله علي بن المديني لما دخل على القاضي ليمتحنه في خلق القرآن فأجاب، فلما عادَ إلى أصحابه فسألوه عما فعل، فقال: "كفرنا وخرجنا." لكن اليوم الناس أهل كذب على أنفسهم وعلى الناس.

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ بيانٌ أن الفتن والابتلاءات ستصُب في الطريق صبًا على الناس حتى تنقطع معاذيرهم وحُججهم، ويبين ما في القلوب ظاهرًا بيّنًا لا خفاء فيه، وهذا واقع الحال فإن هذا الصنف من البشر لما ينحرف ابتداءً عن وجهة الحق والجماعة، فإنه يحاول جاهدًا أن يُظهر أمره على وجه المخالفة لأشخاص لا للمنهج، أو يحاول تبرير فعلته بإلصاقها على وجه موافقة مصالح الدين والمؤمنين. ثم تبدأ الضغوط والفتن تزداد، وهو في كل مرحلة يخلع عذارًا وستارًا، وتمضي الرحلة حتى يصل إلى مستقرها عدوًا لله ولرسوله وللمؤمنين، عاريًا من كل الدعاوى والأكاذيب والنفاق التي كان يتستر

بها، وهو في كل مرحلة لا يشعر بالحال الذي وصل إليه؛ لأن خطوات الشيطان تصنع الأُلفة بينه وبينها في كل مرحلة، ولو نظر من مستقره الذي هو فيه إلى ما كان عليه لَما بدأ في الاستجابة للفتن وفي مبتدئها لرأى أيّ هُوَّة سحيقة أَوْبَق نفسه فيها، لكنها العِماية على القلب، والرَّان الذي يتكدَّس عليه فينطفئ نور الحق، وكيف يفعل هذه المراجعة لواقعه وهو قد قطع صلاته مع كتاب الله فلم يعد أنيسًا له ورسول الله ﷺ يقول: ((إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب))؛ فهكذا تصبح قلوبهم وعقولهم ونفوسهم مأوى لكل شر، ومهبط كل غِوايةٍ شيطانية، فيظهر أمرهم لأنفسهم وللناس، وما كانوا يكتمون سِرَّه من النفاق وبُغْض الثبات على دين الله يصبح علانية ويتحقق قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾[138]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ دليلٌ على ما قلنا، أن الناس لا يستطيعون الحكم على النوايا بتسمية هذا مؤمن وهذا منافق وهذا كافر حتى تأتي الفتنة فيتمّ التميز والبيان والحكم الواضح الجلي، وهذا هو المعنى في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[139]، ذلك بأن كشف هؤلاء المنافقين وظهورهم في رحلة الإيمان والشهادة والجهاد يمنع من دخولهم في الصف المؤمن، وهو ما يُحقق إبعاد الهزيمة عنه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فكان كشفُهم وفضحهم من خلال تخلِّيهم عن الفئة المؤمنة بسبب الابتلاء هو رحمة بهذه الفئة لِما تصلُ إلى مُستقرها الذي أراده الله لها.

فهذه الآية هنا في سورة العنكبوت وفي سورة النساء وفي سورة آل عمران: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ يفسِّر بعضها بعضًا في بيان فضح الله للمنافقين من خلال رحلة الإيمان والجهاد، أما قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[140] فهي لنوع آخر من هؤلاء، فالذين هنا لم يبعدوا في الإيمان بل وقفوا على حدِّه حتى إذا جاءتهم فتنة قدرية انقلبوا إلى الكفر، هذا مع أن سياق آية سورة الحج يدل على أنهم في شكٍّ قلبيٍّ عقديّ؛ ولذلك كان كفرهم في النسك كما قال تعالى بعدها: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ۝ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى

[138] آل عمران : 179
[139] النساء : 141
[140] الحج : 11

﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾[141] وسورة الحج هي باب التوحيد النُّسُكي كما يتبيّن لمن قرأها.

ولو تأمّل المرء مواطن الردّة في القرآن الكريم لوجد أن عامّتها يتحدث عن مواطن الجهاد والولاء والبراء كما في هذه الآيات المتقدمة وفي سورة آل عمران في الحديث عن أُحد وفي سورة التوبة، وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فإن سياق الآية وسباقها إنما هو في الولاء لله ولرسوله والبراء من الشرك والكفر وأهلهما، إذْ أنها مُفتتحةٌ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾[142] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[143]، وكذلك الردّة المذكورة في سورة مُحَمَّد وهي في موطنين هناك، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[144] وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[145] وسورة مُحَمَّد هي سورة القتال كما هو معروف.

إن الله تعالى يَعْلم العباد وحقائق قلوبهم، ولكن تأتي الفتن ليصبح ما كان خفيًا مستورًا، ظاهرًا معلومًا، فيكون علمُ الله به على معنى آخر غير العلم الأول؛ إذْ الأول عِلمه في موطنه المخفي، والعلم الثاني هو علمه في ظهوره وبيانه.

والأول هو اختصاص الرب حتى يأتي الثاني فتقوم الحجة على الناس من أنفسهم، ويُصبح المكتوم عند الناس معلومًا لهم، والله ﷻ يفرق بين العِلْمَين كما قال تعالى في إقامة الحجة على الناس بالرسل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[146]

فالله غنيٌّ عن شهادة أحد بما يعلم، لكنه سبحانه يرفع مراتب الخلق باشتراكهم في الشهادة والعلم بما يعلم ﷻ، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[147] وقوله ﷻ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لينفي ظنون الباطل بحاجته إلى شهادة غَيْره معه، وليُبين حكمة أفعاله

[141] الحج : 12-13
[142] المائدة : 51
[143] المائدة : 55
[144] مُحَمَّد : 25
[145] مُحَمَّد : 38
[146] النساء : 165-166
[147] آل عمران : 18

في الخلق، فالحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يدل على حال آخر غير ما ذُكر في سورة التوبة من حالين فقط في قول المؤمنين: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: النصر أو الشهادة، فهذا حالٌ آخر، وهو حال الإيذاء في الله بالسجن والنفي والجلد والتضييق، وسبب حصر الؤمنين للحالين كما في سورة التوبة؛ لأن حال الإسلام في المدينة صار مستقرًا، وصار للمؤمنين دار يأوون إليها ويأمنون فيها، فإن خرجوا للجهاد فهم إلى نصر وفتح إلهي يؤوب به المجاهدون إلى ديارهم أو إلى شهادة بعضهم، أما هنا في سورة العنكبوت فإن الحال مختلف، فهي خطاب لمؤمنين في دار لم يستقر أمرها بعد أو أنهم في حال استضعاف ورغبة هجره إلى دار أمانٍ واطمئنان؛ ولذلك كان الحال في سورة مُحَمَّد لما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[148] هو حال الدار في مبتدئها التي تعاني عدم الاستقرار الآمن، لكن الحال في سورة التوبة كان على وضع آخر إذْ أنها نزلت بعد أن صار لهذه الدار القدرة أن تطبق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾[149] فكان خروجهم إلى الروم بفضل الله ورحمته.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ هو حالٌ آخر غير الذي تقدّم من قوله ﷻ في بداية السورة: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾، إذْ أن مبتدأ الفتنة في أحوالٍ عدة منها، وجود دار الإسلام القاهرة على مَن فيها أو عدم وجودها فتكون الفتنة كاشفة للصادق من الكاذب، فينحاز كل واحد إلى طائفته بوضوح وبيان، لكن هذه الآية: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ لا تصنع الفتنة لهذا الانحياز، بل يبقى المنافقون في الصف الإسلامي، وهم يملكون كل أدوات الخداع والتَّخفي من أقوال وأفعال مبسوطة في سورة التوبة، وفي سورة الفتح تصنع هذه الأفعال والأقوال قدرة على البقاء الخبيث كبقاء الحشرات تحت ضغط الظروف القاهرة، ومع ذلك لفتنة الحق والابتلاء فهم مكشوفون للمؤمنين عند كل فتنة، إلا أنهم يتسترون بالدعاوى الكثيرة.

هذه قدرةٌ بشريةٌ يعرفها الناس في حياتهم في أصناف لا تستحي، فلا يملك الناس إلا جحظ العيون وهم يرونهم يتكلمون بقيم الشجاعة وهم الجبناء، وبقِيَم الإنفاق وهم البخلاء، وأهل الحق ينظرون لبعضهم بعضًا وهم يتساءلون في استغراب عن هذه الوقاحة التي تُطلى بها وجوه هؤلاء. والقصد بأن الفتن كاشفة للصادق من الكاذب، فقد ينحاز فيها كل واحد إلى صفِّه، وقد يبقى أقوام في الصف المؤمن وهم منافقون لأن هنا مصالحهم

[148] مُحَمَّد : 31

[149] التوبة : 123

أو لخوفهم من العقاب والعذاب.

في الآية الأولى كان ذكر فضل الابتلاء في بيان الصادق من الكاذب في سياق ذكر تاريخ الابتلاء والْتصاقه قدرًا بالإيمان؛ لأن هذا وضع الإيمان عمومًا في التاريخ، أمّا هنا فقد ذُكر فضل الابتلاء في بيان المنافقين من المؤمنين في سياق واقع تحقيق النصر أو الإيذاء، وهو واقع الجهاد أو مقدماته كالهجرة في سبيل الله تعالى، فاختلف الحال بينهما كذلك.

وقد يسأل سائل: كيف يكشف المنافق بالبلاء؟ وهل النفاق إلا حالة ستر وتخفّي، فأن يُعلَم المنافق أنه منافق لا يغيّر من كونه ما زال مستترًا مُتخفيًا بستار النفاق. اعلَم أن النفاق حالة وجودية ظاهرة في مُجملها وليست مُختفية، فلذلك النفاق حكمٌ شرعي كما الحكم بالإيمان والكفر، والصحابة كانوا يعلمون المنافقين كما هو الصحيح في أقوال أهل العلم، وهناك منافقون لا يعلمهم إلا الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[150]، وهؤلاء وصفهم الله بالمرَدة العُتاة فقال: ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾[151].

لكن هناك منافقون مكشوفون بكشف الله صفاتهم وأقوالهم ومواقفهم، وأقوالهم وصفها الله وكشفها هي أقوال لا تصل إلى حدِّ الحكم بالردة والكفر، فلو فعلوا أفعال الردة لكان فيهم حكم الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[152]، فكان أن انتهوا فمُنع عنهم حكم الردّة، لكن هم في منطقة الظل من الأعمال مثل الترجيف والجبن والاعتذار بالباطل على تخلُّفهم عن مواطن الإيمان، وهي أقوال ظاهرة يعلم المؤمنون كذبها لكنها كافية في الشرع لرد حكم الكفر عنهم.

ولذلك فإن من الإيمان والعلم به هو العلم بالمنافقين، والجهل بهم هو جهل بحقائق الإيمان، فإن أصاب الجماعة المؤمنة هذا الجهل كان مَردّه عليهم وبالاً في الدنيا بما يصيبهم من خبثهم ومكرهم وجُبنهم وبخلهم في مواطن البلاء والفتنة. ولذلك فإن الفتنة تَكشف المنافق لا ليخرج من دائرة النفاق إلى الكفر الظاهر الصريح، بل هي تكشفه ليعلم الناس نفاقه، وهو نفاق كما تقدم لا يتعلق بالاعتقاد، بل هو نفاقٌ يتعلق باختياره بين الآخرة والدنيا في مواقف الجهاد والبذل والابتلاء وهو نفاق أكبر كذلك، إذْ من الخطأ القول إن النفاق الأكبر هو النفاق

[150] التوبة : 101
[151] التوبة : 101
[152] الأحزاب : 60-62

الاعتقادي، والنفاق الأصغر هو النفاق العملي بإطلاق! فالصحيح أن النفاق العملي منه الأصغر ومنه الأكبر، وتفصيل ذلك بَيِّن في كتاب الله تعالى وفي سُنّة رسول الله ﷺ.

وفائدة كشف المنافق أنه منافق تعودُ للدنيا والآخرة، أما الدنيا فللطائفة المؤمنة أن تتعامل معهم كما تعامل معهم رسول الله ﷺ وكما أمر الله تعالى كقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾[153]
وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[154]
وقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾[155]
وقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾[156]
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[157]
وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾[158]
وغير ذلك من الآيات، وهي أحكامٌ شرعيةٌ واجبة لا خيار للمؤمنين فيها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[159]؛ تَقَدَّمَ العائق المتعلق بأسرة المرء وأهله وأخصّهم والِدَيه، وها هنا فتنة أخرى في رحلة الإيمان، وهي فتنة الصاحب والقريب والملأ الغالب الغني والمستكبر، كل هؤلاء يُلقون بثقلهم لمنع المؤمن من سلوك سبيل الإيمان ليدخل في سبيلهم وفئتهم وجماعتهم.

والآيات السابقة تُبيّن فتنة البلاء والعذاب في أغلبها، لكن هنا فتنة مُغمّسة بالإغراء والترغيب، يقضي بها العارض الكافر على معاني الخشية في قلب المعروض عليه من لقاء الله والحساب هناك، فيُلبّس عليه أنه يمكن أن يجمع بين النجاة في الآخرة وتحصيل شهوات الدنيا وأهوائها، فهي ستار خادع يتخفى به المرء أنه مستضعف لا قرار له في المدافعة بين الحق والباطل بل هو عبد لغير الله تعالى من أجل لقمة الخبز ودفع البلاء عن نفسه وأهله، وموقفه هذا من سلوك سبيل المجرمين لا علاقة له بإيمانه بالله والدار الآخرة.

[153] النساء : 88
[154] الفتح : 16
[155] التوبة : 83
[156] التوبة : 94
[157] التوبة : 84
[158] التوبة : 55
[159] العنكبوت : 12-13

هذه ظلال الفتنة التي تحياها جموع البهائم وهي تُستخدم أسلحة بأيدي العتاة المستكبرين، فتنفّذ إرادتهم بالشر والكفر، ومنه الإيمان من تحقيق النصر ويظن هؤلاء البهائم أنه ليس لهم من الأمر شيء، بل الخطايا على المستكبرين والقادة، وأما هم فيحلفون أنهم ضعفاء! وما سلكوا هذا السبيل إلا من أجل لقمة الخبز أو الخوف على أنفسهم وأموالهم وأهليهم.

ثم تأمّل هذه الدعوة الشيطانية هل ترى فيها دعوة للكفر باليوم الآخر أو الكفر بالله على معنى الاعتقاد؟

إن هؤلاء المستكبرين، دعاة الكفر لا يطلبون منهم الكفر باليوم الآخر ولا الكفر بلقاء الله، بل هم يثبتون لهم هذا المعنى ويقولون لهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾، فهم يُقرُّون أن هذه خطايا، وأن الخطايا لا بُدّ لها من حساب كما هو في قولهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ فلو لم يكن حساب لها لَما كان لحملها معنى عند الطائفتين، ولكنهم في هذا الحال وهو حال تقدمت صورته في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: حال الجهاد ومقدماته، لا يهم ماذا يكون اعتقادك بل المهم في أي السبيلين أنت، ولذلك قالوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾.

إن هذه الجموع من البهائم التي تبيع دينها فتدخل في سبيل المجرمين لا عذر لها عند الله تعالى، والذين يعذرونهم بحجة صحة اعتقادهم أو بكَوْن الذنوب على الطواغيت لا عليهم لاستضعافهم، هم أهل ضلال وجهالة ولا يعلمون كتاب الله، بل هم بأقوالهم هذه يُهوِّنون على هذه الجموع من البهائم الدخول في طوائف الكفر والقتال معهم ونصرة الباطل على الحق، وهم بهذا يفعلون فعل الكافرين هنا حيث يُجيز هؤلاء الكفار – كما في هذه الآيات – شراء الذنوب يوم القيامة، وهؤلاء كذلك يرون أن الذنب عمل المتبوع لا التابع. وآيات القرآن في هذا الباب جليّة واضحة كما في سورة إبراهيم: ﴿وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾[160] وفي سورة سبأ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾[161] وغير ذلك من الآيات مما هو مبسوط في غير هذا المكان.

فإعذار جموع البهائم وهي سالكةٌ سبيل المجرمين، تعمل بعملهم، لا يقول به إلا من جهل دين الله، وقال على الله ما ليس به علم، وكفى بذلك جرمًا في الدنيا والآخرة، وكيف يقول هذا القول امرؤ قرأ كتاب الله تعالى، ورأى واقعه في واقع العلاقة بين المستكبرين والأتباع، وأنها علاقة متعة، كل واحد من الطرفين يحقق غرضه وشهواته: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي

[160] إبراهيم : 21
[161] سبأ : 31

بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[162]، فالجموع والقطعان الذين يعذرهم هؤلاء يكشف القرآن واقعهم أنهم يتمتعون بعلمهم هذا، بل ويستشفعون بالآخرين ليدخلوا جنودًا عند هؤلاء المستكبرين، ويُعدُّ الداخل معهم والقريب منهم صاحب حَظْوة يُحسد عليها من أمثاله، ومع ذلك يقول الجهلة إنهم معذورون وليس لهم من الأمر شيء.

إن المرء الذي يعلم الحق ثم يذهب إلى غيره عملًا وسبيلًا بحجة أن الإثم على داعِيهِ أو آمِرِه هو امرؤٌ جاهل، فإن وإن حمل المفسد إثم نفسه وإثم المدعو كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[163] إلا أن هذا المستجيب عليه إثم فعله، لا ينقص منه شيء.

هذه الصورة من الفتنة ليست حدثًا ماضيًا ذهب في ثنايا التاريخ، بل سيرةٌ متجددةٌ يُطمْئِن فيها الأتباع نفوسهم بالوهم أنهم ليسو شيئًا في مواجهة الكفر ضد الإيمان، وقد كانت هذه الحجة دومًا للحُوقِ الجموع والقطعان لدافعي الأموال وباذلي الشهوات لهذه الجموع، ومن خلال هذه الجموع تبقى طائفة الملأ والاستكبار والبغي حاكمة غالبة، لا بأيديهم هم، بل ولا بأيدي أبنائهم وأحبابهم بل بأيدي هذه القطعان التي تحارب الحق من أجل الشهوة العابرة والرزق العاجل، وحين توجه ضربات أهل الحق ضد هؤلاء لأنهم الدروع والصدور للباطل المتخفي وراءها فإن عقائر الجهل تبدأ بالصراخ: "ما لكم ولهؤلاء المساكين، إن كنتم ولا بُد مقاتلين فعليكم بالملأ"؛ ولو أطاعَ أهل الجهاد دعوة هؤلاء الجهلة لبطل الجهاد في تاريخ الأُمَّة ومستقبلها، فهل تظن أن مئات الآلاف الذين كان يقاتل بهم هرقل في الشام في اليرموك، ومثلهم الذين يقاتل بهم كسرى في القادسية غير هؤلاء الذين تدافعون عنهم أنهم مساكين وليس لهم من الأمر شيء. ثم ينسى هؤلاء أن قطعان الأتباع من بهائم البشر هم في عدائهم إن قدروا على المؤمنين أشد من الكافرين بالله واليوم الآخر، وهم أحسن مواد الباطل في إيقاف الجهاد وحركة الإيمان وغلبة الحق، فإنهم إن غلبوا على المؤمنين كانوا أشد عداءً وكفرًا، وإن أصاب منهم المؤمنين مقتلة تباكى الكفر وملأ الاستكبار أن أهل الجهاد يقتلون المصلين والمساكين وأهل جلدتهم؛ ولذلك لم يكن للكافرين على المؤمنين نصيب إلا بأيدي هؤلاء القطعان من بهائم البشر.

هذه القاعدة القرآنية بعدم براءة العامل من عمله بحجة أن الإثم على الآخر الداعي يستخدمها كذلك في زمن الجهالة المقلدون لفتاوى الباطل، فإن كثيرًا من أهل الأهواء والجهالة يعلمون بطلان بعض الفتاوى، ويعلمون فسق وضلال وانحراف بعض المفتين، إلا أنهم يخادعون الله فيما يظنون وما يخدعون إلا أنفسهم ويأخذون بهذه الفتاوى لأنها تحقق لهم أهواءهم وشهواتهم، فإن واجههم ناصحٌ بضلال هذه الفتاوى أجابوه أن الإثم على المفتين لا على

[162] الأنعام : 128-129

[163] النمل : 88

أنفسهم، والله يعلم أنهم ما تركوا الحق إلا وهم يعلمونه، وما ذهبوا لهؤلاء المجرمين من المفتين إلا لأنهم يعطونهم ما يحبون ويبررون لهم أفعالهم.

ولو سُئِلَ أحدهم: لماذا تركت هذه الفتوى وأخذت بغيرها وأنت تعلم حال مفتيها؟ لَما وجدت إلا جوابًا واحدًا، أن هذا المفتي يحقق لهم أهواءهم.

لقد طَفِق أحمد بن أبي داوود يحرض الخليفة على قتل الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن وهو يقول: "اقتله ودمه في رقبتي." يجري بكلمته هذه كلمة أهل الكفر هنا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾، ويفعلها الوارثون لهؤلاء اليوم من المفتين وهم يُحلون للناس أكل الحرام من الربا وغيره، ويُهوِّنون عليهم قتل المؤمنين من المجاهدين وأنصارهم، ويدفعون القطعان للدخول في طوائف الكفر وهم يضربون على صدورهم: إثمكم علينا.

إنني لا أعلم في واقع الحال طائفة كفر وردّة تُجيّش هؤلاء البهائم للدخول في سبيلها إلا ويجري معها هؤلاء المفتون يعلنون هذه القاعدة: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾، فيا لكفر هؤلاء المفتين، ويا لجرأتهم على الله تعالى وعلى القول عليه بما يعلمون بطلانه: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾[164]

وقد يسأل سائل: فكيف للعامي أن يعرف ضلال هؤلاء الدعاة: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾؟ فيقال لهم: "إن الحقَّ أبْلَج والباطل لجْلج"، فما من باطلٍ في الأرض إلا وعليه ظلمته والدلالة عليه أنه باطل، يعلمه كل أحد في نفسه، وما من حق في الأرض إلا وعليه نوره والدلالة عليه أنه حق، يعلمه كل أحد في نفسه، فالحق والباطل لا يشتبهان، وإنما تشتبه بعض الأمور الخفية على بعض الناس. ثم إن الله أقام لأهل الحق دلائل الحق من صبرهم وصدقهم وثبات أقوالهم، وأقام لأهل الباطل عليهم دلائل الباطل من بيعهم دين الله ومسايرتهم الكفر والطواغيت في أفعالهم وشهواتهم، وهذا في واقع الأمر لا يشتبه على الناس، ولا يغرنك أقوال أهل السفاهة بألسنتهم أنهم في حيرة واضطراب، فهم كذبة مفترون، بل إن أهل الباطل يعلمون أن هؤلاء المفتين إنما يَتبعونهم للدنيا، ويوافقونهم بالباطل، ومما يشهد لهذا أنه مجرد أن يخالف المفتي شيئًا من أفعال ورغبات هؤلاء الطواغيت حتى يطرد ويُنْبَذ، فلا يساكنهم ويجاورهم إلا من أعطاهم كل ما يحبون من باطلهم الذي يُقوِّي سلطانهم وكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ليس معناه حمل الخطايا على معنى انتقالها عن الفاعل إليهم، وفراغ ذمة الأول، بل معناه الرد على هذا المعنى وهو: أن هذا الحِمْل من الخطايا باقٍ على ظهر الأول، وهو كذلك محمول على ظهر الداعي كما في الآية التي تليها: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. ولذلك كَذَّبَ الله معناهم هذا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وقد يكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

[164] البقرة : 175

هو معنى قوله تعالى عنهم يوم القيامة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[165] أي: إن الله يعلم كذبهم في عدم وفائهم بهذا الوعد، كما قال تعالى عنهم كذلك: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ◯ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ◯ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾[166] وهذا معنى حسن لهذه الآية والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لا يعني تشعيف السيئات، ولا أن المرء يَزِرُ وزر غيره، فإن هذا ممنوع وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[167] وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[168] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[169]، وهذا بخلاف الحسنات فإنها تُضاعف كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[170]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[171]

أمّا هذا الثقل الذي يحملونه مع أثقالهم فهو ثقل الأتباع كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ◯ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[172] ولذلك قال الله تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[173] وقال عنه وعن جنوده: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ◯ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾[174] وإن أشد آية على هؤلاء المتبوعين العُتاة هو قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ◯ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾[175]

---

[165] البقرة : 166
[166] يونس : 28-30
[167] الأنعام : 160
[168] القَصَصْ : 84
[169] فاطر : 18
[170] الأنعام : 160
[171] الشورى : 23
[172] النحل : 14-25
[173] هود : 98
[174] القَصَصْ : 40-41
[175] مريم : 68-69

فاللهم نسألك العفو والعافية.

وإن من معاني حمل المرء سيئات غيره هو حمله سيئات المظلومين بظُلمه، فإن الظالم يؤخذ من حسناته وتُعطى للمظلوم، حتى إذا فَنِيت حسناته أُخذ من سيئاته فوضعت عليه – كما في الصحيح –، فإن المظالم يوم القيامة تُؤدَّى بالحسنات والسيئات لا غير. أمّا قوله: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فإن السؤال هنا بمعنى: المجازاة والعقوبة، والسؤال يوم القيامة يكون لمعاني منها هذا المعنى..

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[176] لقد ذُكِرت قصة النبي نوح عليه السلام في مواطن أخرى من كتاب الله، وفيها قد فُصّلت سيرته معهم كما في سورة الأعراف ويونس وهود – وهي أطولها ذكرًا –، والشعراء، كما أن هناك سورةٌ باسمه عليه السلام هي سورة نوح، ولم يُذكر في أي موطن مقدار مُكثه في قومه إلا في هذا الموطن المجموع في آيتين فقط؛ لأن ذكر الزمن هو المقصود هنا من سياق ذكره عليه السلام، ذلك لأن هذا هو من أعظم مواطن الابتلاء والمحن، فالمرء يصبر عشرًا وعشرين ومئة ومئتين من السنين، أمّا أن يكون صبره على قومه المعاندين الكفرة هذه المدة الطويلة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا﴾ فهذا هو عين الصبر على البلاء ومنتهى الإعذار إلى الله تعالى. ونوح عليه السلام ككل الأنبياء جاء بالتوحيد لقومه ومعه الوعد بالنصر إن خالفوه، فهل ترى يا عبد الله أن الوعد قد تأخر بعد أن أتى بعد هذه المدة؟ لا والله، بل لكل أجل كتاب، والله يُمهل عباده ولا يهملهم، ويصبر عليهم ولا ينساهم، ويَعِدُ عباده المؤمنين ولا يخذلهم، ويبقى الزمن في وسط المحنة والابتلاء والفتن هو من أعظم المرهقات وأثقلها على المرء، والمرء يبدأ قويًا بما رُكِّب عليه من فطرة قوة الابتداء ثم يبدأ الزمن – وهو خصمٌ لدود في الفتن – يلقي بثقله، ويستهلك هذه القوة يومًا بعد يوم، بل لحظة بعد لحظة، حتى إذا طال صار المرء إلى حالةٍ من الضعف والإرهاق، وإن خلا من عوامل المدد والقوة آلَ أمرُه إلى التخاذل أمام خصمه.

قد يكون نوح عاش طويلًا كما يعيش أهل زمانه، فالله أعلم بأعمارهم في الزمن الغابر، مع أني أظن أن هذا عمر خاص به وليس لأهل زمنه؛ هذا لأن الأنبياء – عليهم السلام – حال خاص في العمر ليس لغيرهم، فهم لا يُقبضون حتى يُستأذنون – كما ورد في ذلك الحديث الصحيح –، فلهم الخيار في طول العمر كما حدث مع موسى عليه السلام عندما جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "أرسل ملك

---

[176] العنكبوت : 14-15

الموت إلى موسى – عليهما السلام – فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطّى يدع بكل شعرة حسنة، قال: أي ربِّ، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن." وكذلك ما صحَّ عند الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وَبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي ربِّ، مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وَبيص ما بين عينيه، فقال: أي ربِّ من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يُقال له داوود، قال: ربِّ وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي ربِّ، زده من عمري أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: أولم يبقَ من عمري أربعين سنة؟ قال: أولم تعطها لابنك داوود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته))

ولذلك عاش أجيالًا تلد وتعيش ثم تموت، وكان في كل جيل يطمع أن يأتي قوم آخرون تكون فيهم الهداية والتوبة فلم يرَ إلا أجيالًا تموت كافرة وأخرى تلد كافرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾[177] وهذا لا يقوله من عاش جيلًا معه أو أبناء هذا الجيل، بل هو قول نبي يخبر عما رأى وخَبِر من أجيال متعددة متعاقبة، ويؤيده الله بقوله: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾[178] وهو مع ذلك صابر بينهم يرجو لهم الهداية، ويصبر عليهم ويعظهم ويرقب وعد الله بالنصر الآتي.

فحين يرفع أحدهم صراخًا: "متى الوعد؟" أو حين يستعجل العامل النصر، أو حين تكلُّ همة المبتلى تحت العذاب أو القيد أو الغربة يكون هذا الخبر بلسمًا لهم، فإنكم مهما بلغتم من الزمن طولًا تحت هذا الصبر فإن نوح عليه السلام صبر ألف سنة إلا خمسين عامًا.

لقد ذُكِرت العوامل الوجودية المحيطة بالمرء في الابتلاء من أبق ومستكبرين ويأتي عامل الزمن على صورة المثال الواقعي الذي يقطع الأعذار بأن الصبر قد بلغ منتهاه؛ وهو مثال هذا النبي العظيم الذي لم يقُل كلمته: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[179] بعد يومٍ أو يومين، ولا سنةٍ ولا سنتين كما يفعل البعض وينتظر أن يكون إجابة دعوته في صباح اليوم الذي دعا في ليلتهِ تلك هذا الدعاء، بل قال هذا الدعاء بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا وبعد أن علم أنه انقطع منهم الرجاء بأنه لن يؤمن أحد.

---

[177] نوح : 26

[178] هود : 36

[179] نوح : 26

الزمن في حالتين هو ضغط على النفس في المشقة وفي الانتظار، وكلاهما يعيشهما العامل لدين الله تعالى، فهو في المحن ومشقاتها، وهو في واقع انتظار وعد الله تعالى، فطول الزمن يختبر المعاني والقيم ويختبر اليقين على الموعود ولا يصبر تحت ضغطه إلا أهل الصبر واليقين، فالصبر على المشقات وغَمَراتها واليقين على الوعد الآتي من الحق رب العالمين هما عِدَّتا الطريق للوصول إلى النصر وبلوغ الغايات والوعود الإلهية.

لقد عاش رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة هي أطول من عيشه ﷺ في المدينة، مع أن أحداث المدينة أكثر زخمًا وتنوعًا، وأمّا حياة مكة فإن المؤمنين الذين استجابوا له إنما استجابوا في الدفقة الأولى من الدعوة ثم جرت الحياة في عمومها على معنى واحد إلا من أحداث متباعدة كالرحلة إلى الطائف والإسراء والمعراج والهجرتين إلى الحبشة، ولو نظر إليها ناظر إلى ظاهرها لَما رأى فيها أي إنجاز يعادل إنجاز المدينة، لكن الحقيقة أن الزمن في مكة كان زمن الصبر، وهو زمن الاختبار وتحقيق القواعد الأولى لبناء الإسلام العظيم.

الثبات عند الضغوط هو إنجاز عظيم في حد ذاته؛ لأنه إن لم يكن فلن يكون هناك فتح ولا نصر، ولما شكى الصحابة لرسول الله ﷺ شدة ما يعانونه عابَ عليهم الاستعجال: ((ولكنكم تستعجلون)). وبشَّرهم بالوعد القادم حقًّا ويقينًا، وقد شرحتُ حديث خباب بن الأرَت رضي الله عنه في جزءٍ مستقل وذلك بيانًا لهذا الأمر وتفصيلًا له.[180]

ها هو نوح يعيش في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولو عاش خمسين عامًا فقط على هذا الحال لكان صبرًا عظيمًا، فكيف بهذه المدة الغريبة العجيبة، ثم كان ماذا؟ هل طول الزمن أذهبَ الوعد؟ وهل تأخير العذاب قد صرفه عنهم؟ وقد تحقق قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[181] وهل عيش المرء ألف عام يُعادل لحظةً في عذاب الله في جهنم؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهذا الطوفان لم يأتهم فجأة كما تدل آيات سورة هود، بل كان الماء يتصاعد لحظة بعد لحظة، فإن ابن نوح لما ناداه النبي عليه السلام قال رادًا عليه: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[182] فدلَّ هذا أن هذا الكافر كان يأمل أن لا يبلغ الماء ما بلغ من الارتفاع، وأن هناك من الأرض ما يمكن

---

[180] راجع للكاتب: طيب المقال في حديث الاستعجال؛ شرح حديث خبّاب بن الأرت رضي الله عنه: ((ولكنكم تستعجلون)).

[181] الشعراء : 204-207

[182] هود : 43

أن يمنعه من الماء، ولو كان الماء فجأة لما جرى هذا الحوار.

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ هذه السفينة التي أمره الله ببنائها بقول: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[183] فصار قومه يستهزؤون به: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[184]

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وذلك مثل قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾[185] فإن الخبر وحدثه لا يكون عبرة لمن سَمعهُ وصدَّقه، وهذا وجه من التأويل.
ووجه آخر تحتمله الآية، وهي أن السفينة بَقيَت في استقرارها على الجودي كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[186] قد بقيت هي نفسها آية للناس كما قال الله عن فرعون لما أغرقه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[187] ولقد سمعت من بعض من يهتم بدراسة جغرافيا القرآن الكريم وهو يقول: "لو فُحص عن أمر السفينة اليوم فقد نجدها." والله أعلم.

هنا لا بُدَّ من تجلية مفاهيم جاهلية معاصرة تتعلق بالآيات التي واكبت حركة الأنبياء، إذْ كثيرٌ من أهل الجهل يظنون والبعض يقول بـ: أن الواقع المعاصر لم يَعُد فيه هذه الآيات التي واكبت حركة الأنبياء، ويتخفون تحت شعار انتهاء عصر المعجزات لعقيدة ختم النبوة وتوقف إرسال الرسل، وهذا القول هو عُمْدتهم بأن العامل اليوم ليس مقيدًا بسلوك الأنبياء في الإصلاح والتغيير؛ لأن النتائج لن تكون هي النتائج التي وقعت للأنبياء، وبهذا يجيزون لأنفسهم الذهاب في وديان الجاهلية والتنكُّب عن طريق الأنبياء.

هذه المقولات ليست مرتبة واحدة في الناس اليوم، فهناك الزنديق الذي يريد إلغاء الشرع كله لاستغناء الأرض اليوم – فيما يزعمون – عن السماء واستغناء الناس عن الشرع والفتوى، وهناك من تشرب بعض هذه المقولة ولو نفسيًا ممن يعمل للإسلام فغيَّر وبدَّل، ولم يعُد المنهج النبوي هاديًا له؛ لأنه يظن أن ما صار للأنبياء من نتائج لا يكون معه.

[183] هود : 37
[184] هود : 38-39
[185] مريم : 21
[186] هود : 44
[187] يونس : 92

هذه بعض جهالات القارئين للقصة القرآنية، وأثر القراءة الجاهلية ليس مُتعلقًا بالتصور فقط لكن ظِلاله تحيط بسلوك المنهج واتباع السبيل؛ ولذلك فإن أغلب العاملين في الجانب السياسي للتغيير قد أصابهم الانحراف في هذا الباب، وللرد على هؤلاء لا بُدَّ من بيان التالي:

ابتداءً فقد توقَّف قدر الله تعالى بالإهلاك العام للأُمم والأقوام، وذلك بعد أن فرض الجهاد على موسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[188] فكان إهلاك الأمم السابقة بيانًا لحصول البصيرة للأمم أن الحق مع الأنبياء، وأن الأمم لا قيمة لها دون التوحيد واتباع أوامر الله، وهو كذلك هداية ورحمة لمن أراد الاعتبار والتذكر، وهذا قد وَقَع أثرُه، وسيبقى حجة على كل معاند يزعم أن بيِّنات الأنبياء ليست كافية في الدلالة على صدقهم، ولكن هذا كان سببًا لغواية أهل الضلالة في تحدِّيهم لرسولنا بأن يأتيهم من الآيات كما جاء به الأنبياء من إهلاك قومهم كما قال الله تعالى عنهم في مواطن؛ ففي سورة الأنعام تعدَّدَ هذا الطلب وتنوع: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾[189] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[190] ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[191] ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[192]

وفي سورٍ أخرى ذكر الله مطالبهم وتحدِّياتهم لرسول الله ﷺ بإرسال العذاب أو بمجيء الآيات كما أرسلت على الآخرين؛ ففي سورة الأنفال قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[193]، وفي سورة يونس قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[194]، وفي سورة الرعد يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[195]، ويقول فيها: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[196] واستقصاء ذلك يطول.

---

[188] القَصَص : 43

[189] الأنعام : 8

[190] الأنعام : 37

[191] الأنعام : 109

[192] الأنعام : 124

[193] الأنفال : 32

[194] يونس : 20

[195] الرعد : 7

[196] الرعد : 27

لكن، كيف كان يرد عليهم القرآن؟ لقد تنوّع جواب القرآن عليهم، وهذا التنوُّع هو جواب أهل الحق اليوم وغدًا على الذين يَحتجُّون بانتهاء الآيات والمعجزات في انحرافهم وضلالهم.

ففي سورة الأنعام – وفي الموطن الذي تَقدَّم – فإن الرد تضمَّنَ عِلمًا قرآنيًا مُهمًا للعاملين اليوم في النظر إلى أدلة الحق وصوابه، فإنهم حين قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قال الله في الآية التي تليهما مُنبِّهًا إلى آياته العظمى عند من عَقَل وتَدبَّر: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[197]

ففي ذلك أن السُنَن القدرية الجارية المضطردة هي كافية لمن أراد الحق؛ ولذلك تلقي هذه الآية إلى آياته في الدواب والطيور، وهي دالة على الحق الذي يدعو إليه الأنبياء. هذا لأن جريان السُنَن على حالٍ مضطرد هو سبب عند أهل الضلالة والإعراض في منعهم من رؤية يد الله القاهرة القائمة على كل شيء، كما قال الله عنهم لما رأوا البأساء والضراء كما في سورة الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۝ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[198]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[199]

والمعنى المذكور في سياق الآيتين في سورة الأنعام هو المراد في سياق الآية الأولى من سورة الرعد في قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فإن الله تعالى قد ذكر عقبها عددًا من آياته الكونية الكافية لحصول المعنى من الآيات التي يطلبها المعاندون فقال ﷻ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[200] إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[201] بل إن سياق الآية من قبل كان من مطلع السورة وهو يذكر السنن الجارية في الخلق، فالذين يطلبون الآيات إنما هم أهل إعراضٍ وكِبْر، ولو أرادوا الحق لرأوا في الآيات الكونية الجارية على وفق سُنَن الله كافية لهم وشافية لأسئلتهم.

وقد ذكر الله أن هذا الطلب هو طلب الضالين قديمًا وحديثًا لتشابه قلوب أهل الضلالة في كل زمن فقال ﷻ عنهم في سورة البقرة في هذا المعنى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[202]

---

[197] الأنعام : 38

[198] الأعراف : 94-95

[199] فاطر : 44

[200] الرعد : 8

[201] الرعد : 13

[202] البقرة : 118

أمّا الطريقة الثانية التي يُبيّن الله فيها لنبيّه إعراض الله عن طلبهم هذا، وهو بيان عدم صلاحية الآيات الكونية المعجزة في تغيير عقائد الناس؛ لأن الآيات في حقيقتها لا تحقق علمًا إلا للمهديين بزيادة إيمانهم كما وقع مع إبراهيم عليه السلام كما في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[203]

وكما وقع مع الحواريين في طلبهم من عيسى عليه السلام أن ينزل الله عليه مائدة من السماء، أما المعرضون فلم تنفعهم الآيات في ما مضى مع أسلافهم، ولن تنفع الخَلَف كذلك، وهذا بَيّن في مواطن من كتاب الله منها: قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[204]، وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾[205] وقال سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[206]

فبهذان الأمران يكتفي أهل الحق في الرد على هؤلاء الذين يزعمون أن دلائل الحق اليوم ملتبسة، أو أن دين النبي ﷺ غير واجب الاتباع بحجة انقطاع عصر المعجزات، وقد بيَّن القرآن أن الآيات السابقة لو جاءت أو جاء مثلها فلن يهتدي المبطلون، فقال سبحانه وتعالى بعد الآية المتقدمة في سورة الأنعام: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[207]

ولذلك فدليل الحق الذي يكتفي به الصادق إن اختلف الناس هو كتاب الله تعالى ولا شيء سواه كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾[208]

وقال سبحانه في سورة طه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾[209]

---

[203] البقرة : 260
[204] الأنعام : 4-5
[205] الأنبياء : 4-6
[206] الإسراء : 59
[207] الأنعام : 111
[208] الأنبياء : 45
[209] طه : 133-135

وقال سبحانه في سورة القَصَصْ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ۝ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[210]
فقد بلغت الحُجة بالقول ففيه الكفاية.

وقال تعالى في سورة الإسراء في بيان كفاية الرسالة بلا آيات كونية قاهرة: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾[211] إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[212]
وهو قوله تعالى في سورة هود في تعليمه لرسول الله ﷺ مكانته وموقعه من الحق فقال ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[213]، وفي سورة الحجر هذا البيان الواضح في قوله عنهم: ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[214] فجعل إنزال الذكر وحفظه له هو الحق مقابل طلبهم الباطل، جلَّ سبحانه وتعالى في علاه.

فحجّة أهل الحق للمخالفين هو هذا الكتاب، يُرَد به على كل المخالفين من زنادقة ومبتدعة يتنكّبون طريق أهل الحق موافقةً لأهل الباطل غرورًا بهم وابتعادًا عن أهل الحق لعدم صبرهم ويقينهم في الثبات على الحق والجهاد والبراءة من الطواغيت، ثم النظر إلى سنن الله القدرية السارية بين أيديهم، فإن أهل البدع المعاصرين الذين شربوا روح الجاهلية ودخلوا في سبيلها ووالَوا الطواغيت، وعادوا أهل الحق والإيمان والجهاد يُعلم من طرائقهم أنهم لا الإسلام نصروا ولا الشرك هزموا، بل ميّعوا الحق وخلطوه بالشوائب والأهواء، فلم يُحققوا مراد الله تعالى في الفصل بين الخلق، وتمييز مراتب الناس على أساس الإيمان والتوحيد، بل صار هذا التمييز عندهم هو عنوان التخلف والتحجر والجمود، وصارت أحكام الشرع في الناس ومراتبهم تستنكر في أحاديثهم وأحكامهم، وحلَّ بدلًا منها أحكام الجاهلية الباطلة مما هي على الضد من أحكام الإيمان.

[210] القَصَصْ : 48-51
[211] الإسراء : 90
[212] الإسراء : 93
[213] هود : 12
[214] الحجر : 6-9

وقاعدة القرآن هي جريان حوادث الوجود ليتم بيان حقائق الناس على قاعدة الإيمان كما قال تعالى: ﴿يَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾[215]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[216]

والآية المتقدمة في هذه السورة التي بين أيدينا: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ وغيرها من الآيات، أمّا قاعدتهم هم فهو إنكار هذا التفريق، بل ومعاداة أعمال الإيمان التي تحقق هذا التفريق والتمييز.

فمن خلال هذه السُنَن الإلهية الجارية من نصرة لأهل الحق وبقائهم في أشد الخطوب والمِحَن، ونجاتهم كما نجى الأنبياء، وزيادتهم مع كل ما يحيط بهم من عِداء وقتل وسجن وتعذيب ليدل على أن يد الله معهم لا مع غيرهم، ومن ينجو من أهل البدع في مواطن البلاء إنما ينجون بما معهم من مقدار الحق؛ لأن هذا هو عدل الله تعالى في هذا الباب وفي كل باب، وهذا المعنى هو المراد في رد الله تعالى على الكافرين في طلبهم الآيات في أوائل سورة الأنبياء كما تَقَدَّم قوله – جلَّ في علاه –: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، فردَّ الله عليهم ببيان الآيات الكافية لهم لو كان لهم إدراك وعلم، أو كانوا طلاب حقٍ حقًّا، فقال ربنا العظيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۝ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾[217] فجعل سبحانه آية نصر الله لأنبيائه وهلاك أعدائهم فيه الكفاية على الحق الذي أتوا به، مع أن هؤلاء الأنبياء هم بشر من البشر، يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق – كما ذكر ربنا عنهم في سورة الفرقان – فهم وأعداؤهم يشتركون في نفس السُنَن، فلماذا نجى الأنبياء وأتباعهم وانتصروا، وهلك أعداؤهم وخُذلوا؟ إنها قاعدة الحق المذكورة في نفس السورة – الأنبياء –: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[218].

فدعوة أهل الحق لأهل البدع من المخالفين تكون بقولهم: تعالوا إلى كتاب الله لنُقيمه كما أقامه الأوائل، ولنتطهَّر من كل أَدْران الجاهلية من أمور تصوّرية أو عملية، ولنبني أعمالنا على حب الآخرة وميزانها، وعلى اليقين

[215] الأنفال : 37
[216] البقرة : 143
[217] الأنبياء : 7-9
[218] الأنبياء : 18

أن وعد الله لا يتحقق إلا بما أمر الله تعالى، ولنرفع أحكام القرآن في الناس والأشياء والجماعات والحكومات، ولنسلك سبيل الأنبياء مهما طال الزمن وكَثُرَت المِحَن. نقول لهم هذا، ونُعلِّمهم أن أحكام القرآن ليست عمومات وقواعد يملؤها من شاء بالأهواء والشهوات وتصورات الجاهلية، بل نُعلّمهم أن في كتاب الله الكفاية لكل أحداث الوجود ومفردات الحياة وأسئلة الباحثين، ومن غير هذا التصور فإن شعارات الناس اليوم أن الحل في كتاب الله على ما يعنون من عمومات لا تجيب على هذه الأمور لن تكفي في إزالة هذه الغربة.

وأمّا الخطاب القرآني الآخر لهؤلاء في تعنّتهم فهو المذكور في سورة الفرقان، فإن الله علَّم رسوله ﷺ أن يُحذرهم من الآخرة حتى وهم ينكرونها ويستهزؤون بالمؤمنين بها، فإنهم لما استنكروا بشرية الرسول وطلبوا الآيات القاهرة كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[219] إلى قوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا﴾[220] كان الرد عليهم بما سيكون من عاقبةٍ للنبي في الآخرة بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾[221] وها هنا سيكون استهزاؤهم بهذه الإحالة على الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بها فكان رد القرآن: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[222] إلى قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾[223]، وهذا معنى قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[224]، وهو معنى قوله في سورة الزمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[225]

فإحالة الجواب ليوم القيامة طريقٌ قرآني وليس ضعفًا في الخطاب ولا قلة بصيرة في الرد على المخالف، لكن هؤلاء متكبرون عُتاة، لا يجادلون بالحق، ولا يلتزمون به وببيِّناته، فمثل هؤلاء تكون نهاية الخطاب معهم ومع كِبْرهم هو الإحالة عمَّا سيَرَى الفريقان بعد الموت.

بقي أمرٌ يتعلق بالعبرة الصحيحة من القصص القرآني وسيرة الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – له شأنٌ في فهم العواقب، إذْ يتصور البعض أن غياب العواقب التي حدثت مع المخالفين للأنبياء اليوم يضعف اليقين على

---

[219] الفرقان : 7
[220] الفرقان : 9
[221] الفرقان : 10
[222] الفرقان : 11-12
[223] الفرقان : 16
[224] الحج : 68-69
[225] الزمر : 30-31

الحق الذي يحمله أتباعهم اليوم من العلماء والمجاهدين والصابرين؛ ذلك بأنهم يتصورون بأن الحق الصريح إن جابَهَ الباطل الصريح فلا بُدّ من وقوع العاقبة على الوجود الذي وقع للأنبياء كما في القرآن. وهذا فهمٌ غير سديد لكتاب الله تعالى لم يفهمه الصحابة ﷺ أنفسهم على هذا المعنى، وإلا فهل سأل الصحابة وهم في مكة أو في المدينة رسول الله ﷺ عن سبب تخلف هذه العواقب عن أهل مكة والطائف وغيرهما من المعاندين؟

لقد ذُكِر سابقًا أن الآيات الكونية المذهبية للأمم قد توقفت ولم يبقَ إلا المدافعة بين الحق والباطل، فإن كان الأمر كذلك – وهو كذلك – فما معنى ذكر طوفان قوم نوح وريح قوم عاد ورَجْفة ثمود ويوم الظُّلَّة لقوم شعيب ولم يحدث واحدة من هذه على المعنى الذي وقع لهم مع أي قوم كفروا برسول الله ﷺ وعذبوه وأخرجوه وآذوه؟

إن ذِكْر هذه العواقب ليدل على معاني عظيمة عند أهل الإيمان، فإن هذه العواقب هي بصائر لهم كما قال ﷻ، فهم يتعظّون بها ويخافون من وقوع أفرادها عليهم إن عصوا وأعرضوا كما قال ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[226] كما أن هذه العواقب فيها إنجاز الله لوعده مع الأنبياء أنهم هم المنصورون، فلا تغرنكم قوة الباطل ولا سلطانه الظاهر فإن مآله إلى زوال، وهذا الذي حَدّث به مؤمن آل فرعون قومه به فقال ﷺ: "يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، مثل دأب قوم نوحٍ وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلمًا للعباد."، ولذلك طَمْأن الله نبيَّهُ بالنصر مهما كان أعداؤه من قريش في قوتهم وجبروتهم وقال كما في سورة مُحَمَّد: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[227]

وبعد أن ذكر الله الأقوام السابقين في سورة القمر قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[228]

فكان ذِكر عاقبة الأُمم السابقة عبرة للنبي ﷺ ولأصحابه أن العاقبة لهم على الوجه الذي يحبه الله لهم وقَدَرُه عليهم، وليس على المشابهة للحال نفسه في كل حدث. فهل وقع مع رسول الله ﷺ ما وقع للأنبياء السابقين؟ الجواب: نعم، وعلى وجهٍ فيه الدلالة أعظم، فقد أهلكَ الله من أهلك من طواغيت قريش على يد الفئة المؤمنة التي كانت مُستضعفةً تحت أيديهم، وهدى الله من هدى منهم، فلم يذهبوا إلى قبورهم إلا وقد صاروا أنصار الحق، ويبلغونه للناس، ويستشهدون في سبيله، وصارت أعظم القُرى المناوئة له دار إسلام لا دار خراب كما صار للديار

[226] الإسراء : 59

[227] مُحَمَّد : 13

[228] القمر : 43

السابقة التي قال فيها: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[229] فَمَن أعظم؛ آية أن تُهلَك القُرى على هذا المعنى من العذاب، وهي آيةٌ عظيمة، أم أن تصبح القريةُ دارَ إيمان لا يكون فيها كُفرٌ قط إلى قيام الساعة؟

فالمتسائلون عن غياب الآيات في الكافرين على الوجه الذي وقع للأُمم السابقة لم يفهموا العبرة من القصص؛ ولذلك هم لا يرون الآيات العظيمة في واقعهم، أو التي وقعت بعد بعثة الرسول ﷺ وعصر الرسالة.

لقد غُزيَت دار الإسلام واستُبيحت مرة بعد مرة حتى بدا للبعض أن لا قيام لأُمَّة الإسلام بعدها، حدث هذا في زمن الصليبيين، وزمن التتار وحدث على هذا المعنى لديار إسلامية كثيرة في المشرق والمغرب وغَلبَ المرتدون العبيديون على المغرب ومصر، فماذا كان إلا ما سبق من النصر للأنبياء بالنجاة وهلاك الأعداء، وما هذه الأمور إلا جريان على معاني الآيات التي سبقت لنوح وهود وصالح وشعيب ولوط – عليهم السلام –، يفهم هذا كل من كان له قلب ويَعِي معنى العبرة والتذكرة في القرآن.

يأتي الماء إلى قوم نوح عليه السلام مُتتابعًا، ويفرُّ المعاند من تلةٍ إلى جبل، ومن جبل عالٍ إلى جبل أعلى منه حتى يدركه الماء فيكون من المغرقين، وتأتي كتائب الجهاد بعد مجيء الصليبيين إلى بلاد الإسلام، وتبدأ مدافعتهم، وتنشأ محافل الإيمان وأسواقه، وتقع المحن والابتلاءات على المؤمنين، مرة يغري الله الكافرين أنهم بلغوا مرادهم في موقعةٍ يحسبون أن مكّة صارت بمتناول أيديهم، وتبلغ قلوب المؤمنين الحناجر، فتقوم السوق الإيمانية ومددها التصديق بوعد الله أن ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ﴾[230] وتضيق مياه الإيمان الذين هم رجاله على الكافرين وسبيلهم، وهم يرجون حتى تطهر أرض الإسلام منهم، ولا يبقى فيها إلا أذان بلال رضي الله عنه: **الله أكبَر، الله أكبَر**.

وهكذا يبدأ الوعد بقطرة ثم تتكاثر أمام قِلاع الباطل ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[231] حتى يصل الوعد إلى مُنتهاه ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[232]؛ لأنه وعد الله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[233]، أمّا المنافقون فينتظرهم قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[234]، أمّا الذين يستعجلون

---

[229] القَصَصْ : 58
[230] هود : 43
[231] الفجر : 9
[232] هود : 44
[233] القمر : 45
[234] المائدة : 52

البلوغ فيقال لهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ هذا مع أن نوح عليه السلام قد أنذر قومه الدجّال كما قال رسول الله ﷺ: ((إني لأنذركموه، وما من نبيٍّ إلا أنذره قومه، ولقد أنذره نوح قومه)) وها هو الدجّال لم يخرج إلى يومنا هذا، ومع ذلك بقي وعد الله، وهو آتٍ لا محالة، يُصدق به كل مؤمن موقن بكلام ربه، وكما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[235].

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[236]

مع قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه في هذا السياق الذي تَقدَّمت به السورة ما يجلي معاني عاقبة الصبر على الابتلاء، وما يُبين إزالة مخاوف المترددين في الإقبال على الإيمان بما ينتظرهم من البلاء، وخاصةً موضوع الرزق والصحبة والعصبة فإن امتحان الإيمان يكون في ذلك كذلك، كما أنه يؤكّد اليقين على العاقبة التي سيؤول إليها المؤمن الصابر المبتلى.

ابتداءً يُنَبَّهُ إلى أن القرآن الكريم في كل مواطن ذِكر إبراهيم الخليل عليه السلام مع قومه لم يذكر مصائر قومه كما ذَكر مصائر الأقوام السابقين من قوم نوح وعاد وثمود، بل ذكر مصيره هو، الهجرة والنجاة من النار وبركة الله عليه وعلى أهله بهذه الهجرة الإيمانية، وجعل الله نصرةُ بهذا الأمر؛ وهذا يُبين المعنى الذي سُقناه قبل قليل في بيان معنى الاعتبار بالعاقبة للمؤمنين والمعرضين، وليس كما يفهمها من يريد أن يعطل جريان العاقبة في زماننا.

[235] الرعد : 39

[236] العنكبوت : 16-27

ففي سورة الأنبياء ذكر الله فيها عاقبة قومه لما أرادوا حرقه فقال: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[237]، وفي سورة الصافات قال سبحانه: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾[238] فجعل بطلان كيدهم في حرقه هو النصرُ له، والخسارة والهزيمة عليهم، هذا مع دخوله عليه السلام في الوعد الذي أعطاه الله لأنبيائه بالنصر على أعدائه ومخالفيه، كما في سورة الأنبياء: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾[239]

في هذه الآيات من سورة العنكبوت يبدأ إبراهيم عليه السلام دعوته لقومه كما هي دعوة كل الأنبياء، يدعوهم لتوحيد الله تعالى والعمل بأوامره واجتناب نواهيه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾، وتوحيد الله تعالى أصلًا وفروعًا مبسوطٌ في كتاب الله تعالى وفي سُنّة رسول الله ﷺ فهو المضاد لعبادة الأوثان واتخاذ الأصنام، وهو المانع من طاعة غير الله في أوامره ونواهيه، وهو الموجِبُ على العبد أن يصدق أخبار الرسل في ما غاب عن الإنسان قبل الموت أو بعده، فهذا هو أصل التوحيد الذي جاء به الرسل، وحين يكون العالِم لدين الله تعالى داعيًا أو معلمًا أو مُبلِّغًا يُجابه شركًا صريحًا وكفرًا لا خفاء فيه فإن دعوته لقومه تكون على نفس الغرز الذي جاء به الأنبياء جميعًا، وهو ما جاء به الرسول ﷺ، ولما يعارض المشركون هذه الدعوة المضادة صراحة لِما هم فيه يكون الأمر بيّنًا للمهتدي بكتاب الله، فهم مشركون كفرة وهو موحد مؤمن، لكن كيف يكون الأمر ما لم تكن المعاندة على هذا الوجه من الوضوح وذلك بأن يزعم المشرك أن فعله ليس شركًا يضاد أصل التوحيد، فحين يرد دعوة الداعي فهو لا يرد دعوة توحيد الله ولكنه لا يرى أن ما عليه يضاد هذا التوحيد، أو حين يكون المدعو مُقِرًا بحق من حقوق التوحيد، منكرًا لبعضها على معنى أنها معصية لا تنقض توحيده، أو أنها عملٌ لا تعلق له بالتوحيد والإيمان، فهل قصص الأنبياء تكون عبرة وموعظة لهذا الداعي في رحلته الإيمانية مع قومه؟

إن هذا السؤال نِتاج فصامٍ نكد حققته مجموعةٌ من العوامل التاريخية من مناهج أهل البدعة كالمرجئة والصوفيّة، وساعده فهمٌ مغلوط لفهم دعوة الأنبياء كما يعرضها القرآن الكريم.

أمّا مناهج البدعة في تحصيل الشخصية القرآنية ما زال يحتاج إلى جهود، لا ليتشكّل الوعي العلمي على مذاهب الباطل ومنهج الحق، ولكن لتُبْنى نفسية المهتدي عملًا ومزاجًا ومَلَكة واختيارًا على وفق هداية القرآن الكريم، وهذا لا يكون إلا بالعيش في بيئة القرآن، لا تفسيرًا في مجالس العلم وقراءة الكتب السلف فقط، بل بالاندماج في هذه الحياة، وهي بيئة هؤلاء الأنبياء في كل الظروف والأحوال.

[237] الأنبياء : 70

[238] الصافات : 98

[239] الأنبياء : 9

فها هنا إبراهيم عليه السلام يوجه قومه إلى حقيقة الرزق، وهو أنه عند الله لا عند من يعبدونهم ويشركون بهم، وانحراف الناس عن التوحيد وتوابعه بسبب المال هو حالة مسلوكة للبشرية في كل تشكُّلاتها، فقوم موسى عليه السلام قال الله عنهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[240] وما وقع فيه قوم موسى وقعت فيه أمة محمد ﷺ في تاريخها وحاضرها، فكلما سلك الأنبياء من بني إسرائيل مع قومهم هو الواجب سلوكه اليوم من المهتدين مع أقوامه المشابهين للمغضوب عليهم.

أمّا الفهم المغلوط اليوم لحقيقة دعوة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يدعوا إلى نبذ الشرك ومظاهِرِه فقط بل كان فيها الدعوة إلى حقائق إيمانية من عبادات وتشريعات وأوامر ومواقف، ومن نظر إلى القرآن المكي رأى أوامر عديدة طولِبَت بها قريش مع التوحيد الذي أُمروا به.

فسورة الأنعام مكيّة وفيها الأمر بالزكاة بقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[241]، وفيها الأمر بترك أكل ما لم يُذكَر اسم الله عليه، وجعل رد هذا الأمر على وجه القياس الإبليسي كفرٌ وشرك: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[242]

وفيها عدة محرمات كقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[243]

وسورة الإسراء مكيّة وفيها شرائع وأوامر غير التوحيد المضاد للشرك، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[244] إلى قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[245]. وهذا الأمر من سيرة النبي ﷺ هو عينُهُ ما دعا إليه الأنبياء؛ ولذلك كان الأقوام الكفرة يُنازعون أنبياءهم في التوحيد وفي طاعة هذه الشرائع كما قال قوم شعيب له: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُكُلّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[246]

[240] النساء : 160-161
[241] الأنعام : 141
[242] الأنعام : 121
[243] الأنعام : 151
[244] الإسراء : 23
[245] الإسراء : 38
[246] هود : 87

ونازعَ قوم لوط لوطًا في جريمة إتيان الذكران فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾[247] وهذا يدلُّ على أنهم شرعوا حقوقًا من عند أنفسهم وجعلوها شريعة، فكان النزاع بين لوط وقومه على هذا التشريع، بل في قصة لوط عليه السلام في القرآن الكريم كله لم يذكر عنهم قط أنهم نازعوه في التوحيد الذي جاء به الأنبياء، بل لم يذكر الله عنهم إلا قبائح سلوكية هي اللواط وما سيأتي ذكره في هذه السورة: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾[248] فكان تشريعهم هذه القبائح هو ما جاء لوط عليه السلام لإزالته، وهذا بيّن في سورة الأعراف وهود والشعراء وهي السور التي فُصِّلَ فيها دعوة الأنبياء لقومهم، مع أنه ذُكِرَ في غير هذه المواطن كهذه السورة وغيرها كالصافات والحجر والأنبياء والنحل، وهذا النموذج النبوي العظيم كافٍ ليُعلَم أن أي انحراف يُجابِهُه الداعي والعالم والمجاهد يجب فيه الاعتبار بقصص الأنبياء كما جاء بها القرآن الكريم.

ثم هذا نبيُّ الله موسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل يأتي لمهمة تتعلق بواقع الأُمَّة السياسي ابتداءً، وهو ذلتهم تحت يد المصريين وفرعون؛ فجاء ليخرجهم من هذا الواقع الأليم، ولم يذكر الله تعالى في كتابه شركًا نُسُكيًا كان عليه بنو إسرائيل تحت حكم فرعون وطغيانه. بل إن فرعون وقومه كذلك لم يذكر القرآن الكريم عنهم قط أي شركٍ نُسُكي، ولما كان فرعون وملؤه ينازعون موسى عليه السلام كان نزاعهم ابتداءً يقوم على عدم رفع طغيانهم عن بني إسرائيل المستذلين تحتهم كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[249]، وقال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[250] وأمّا ما ذُكر عن عبادة المصريين وفرعون فمذكور في قوله تعالى عن ملئه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[251] وهي آية فيها قراءتان مشهورتان، فقوله: ﴿وَآلِهَتَكَ﴾ أي: ما تعبد من دون الله، أو القراءة الثانية: ﴿وَإِلَاهَتُكَ﴾ وقد صرح فرعون أنه الإله الذي يجب أن يُعبد، ذكر ذلك القرآن مرتين، مرةً في سورة الشعراء كما قال الله تعالى عنه مخاطبًا موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[252]، وفي سورة القَصَصْ قال عنه مخاطبًا الملأ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[253]

وقومه الذين يسمعون قوله هذا يعلمون أنه ليس له ربوبية في الخلق والإيجاد والإمداد والإفناء، كما أن إلهية

---

[247] هود : 79
[248] العنكبوت : 29
[249] الأعراف : 109-110
[250] الشعراء : 34-35
[251] الأعراف : 127
[252] الشعراء : 29
[253] القَصَصْ : 38

البشر للبشر وإن كان فيها بعض الأعمال النُسُكية كالسجود، لكن لن تكون هناك العبادات القلبية كالإخبات والإنابة، بل ولا يعتقد العابد أنه مراقب يسمع هذا الإله ولا يبصره، ولا قيامة له عليه، إنما أجلُّ صور التألُّه في هذه الحالة هي الطاعة والامتثال، وهو كفر إبليس ليس حين اتخذ إلهه هواه، فقدمه في الأمر والطاعة على أمر الله وطاعته. والقصد، أن أساس دعوة موسى عليه السلام كانت لواقع بني إسرائيل، وهو مطلبه من المصريين لقولهم لما وقع عليهم الرجز: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[254]، وكما قال الله عن موسى وهارون في دعوتهما لفرعون: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[255]

فهكذا؛ من فهم دعوة الأنبياء، فلذلك لم تبطل العبرة لأي ممتَحَن في الله وهو يجابه الباطل حين يقرأ قصة نوح وإبراهيم – عليهما السلام – وغيرهما؛ لأن سيرة الأنبياء مع المشركين والمنحرفين والمستكبرين هي سيرة متجددة لكل أزمان البشر وعهودهم.

أمرٌ آخر يتعلق بالمنهج النبوي في الاستدلال بالقصة النبوية في القرآن، فقد قامت شواهد على هذه الطريقة أجلاها ما وقع في حادثة ذات أنواط كما رواها الصحابي الجليل أبي واقد الليثي فقال: ((خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سورة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسِدْرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، إنها السُنَن؛ قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[256] لتركبنَّ سُنَن من كان قبلكم)).

والمشابهة بين الأمرين على معنى قياس الأدنى على الأعلى، فما طلبه بنو إسرائيل هو الشرك الجلي، وأما ما طلبه الصحابة فهو سدرة يتبركون بها بوضع أسلحتهم عليها وهذا وسيلة إلى الشرك وليس هو، ومع ذلك فضرب مَثَل فعلهم بفعل بني إسرائيل وذلك استدلالًا بالأعلى على الأدنى، ومما يكشف المعنى أكثر للمتسائل هو قوله ﷺ عن الخوارج كما في الصحيح: ((لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد))؛ فنبيُّ الله يحكم فيهم ما فعل الله بقوم عاد، وهم الذين أتت عليهم الريح فجعلتهم كالرميم، مع ما في الخوارج من خلاف بين أهل العلم في التكفير أو التضليل، ولم يقل الخوارج مع ضلالهم مقالة قوم عاد، ولا ردوا على ما جاء به الرسول ﷺ ما رد قوم عاد على هود عليه السلام، ولكنه الاستدلال النبوي الذي يُخطؤه كثير من الناس في يومنا هذا، وهو خطأٌ جسيم يؤدي إلى تعطيل حكمة

[254] الأعراف : 134
[255] طه : 47
[256] طه : 47

القرآن، وعبرة قصصه، والاقتداء بالمهتدين فيه.

أمّا زَعْم البعض أن المشركين زمن الأنبياء لم يكن لهم تأويل في شركهم كما يتلاعب به الزنادقة اليوم من المشرّعين المرتدين؛ ليصرفوا عن أنفسهم حكم القرآن في أمثالهم فهو جهل آخر بكتاب الله تعالى، فتأويلات المشركين قديمًا هي عينها تأويلات المرتدين اليوم، وقد جرى عليهم حكم الله بالإهلاك والعذاب، وجرت عليهم أحكام الله التي أمر الله بها أنبياءه فيهم، ومن تأمّل كتاب الله وجد هذا بيّنًا، ومن ذلك زعمهم أن أعمالهم الشركية ليست شركية في قياسهم كقوله تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[257]

فهذا تأويلٌ شيطاني يقع فيه المتعبدون لغير الله تعالى في نسكهم، ويقع فيه كل من اتخذ وليًا من دون الله يطيعه ويأتمر بأمره على غير أمر الله تعالى وبما أذن له، وهو قولهم كذلك في سورة يونس: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[258]

ومن تأويلاتهم في القرآن زعمهم المجْمل أنهم على دين الأنبياء السابقين المحكوم لهم بالصواب والحق كقول بني إسرائيل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[259]

ومن تأويلاتهم في رد دعوة الأنبياء هو وجود الخصومة المسبقة بينهم وبين الأنبياء، فقال لهم شعيب عليه السلام: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[260]

---

[257] الزمر : 3
[258] يونس : 18
[259] آل عمران : 65-68
[260] يونس : 18

ومن تأويلاتهم في رد الحق الذي جاء به الرسول ﷺ زعمهم أن إعلانهم الدخول في الدين الجديد يدمر حياتهم واقتصادهم ويُكالب عليهم الأمم: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾[261]. وقد تَقَدَّم في مبحث الآيات الكونية زعمهم عدم وضوح الحق لديهم لعدم وجود المعجزات القاهرة كما قال قوم عاد لهود ﷺ: ﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[262] وحججهم في القرآن كثيرة تحتاج لوحدها إلى جزءٍ مستقل، وهي عينها اليوم يتخذها اللاحق عن السابق ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[263].

فمن فَهِمَ هذا عَلِمَ أن الحجّة القرآنية، والعبرة القرآنية كافية لاستيعاب كل أحوال وأزمنة الدعاة والمجاهدين على وجهٍ حقيقي، وحين تنجلي هذه الحقيقة للمسلمين حينها يصبح القرآن حقًّا وصدقًا منهجهم لواقع وأحداث ورجال وجماعات زمانهم، فلا يحتاجون بعلمهم هذا إلى مناهج الباطل، ولا يتنازلون عن الحق الذي معهم لتغير الزمان كما يزعمون، ولا يصبح القرآن الكريم مجرد عمومات في أذهان العاملين، ثم يملؤون تفاصيل هذه العمومات بالخيالات والأوهام الذاتية أو المستقاة من زبالات البشر الضالين؛ لأن هذا هو الواقع اليوم إلا من قلة من الغرباء من العلماء والمجاهدين الذين يجدون من جهلة أهل الإسلام والمبتدعة استهزاءً وإنكارًا أشد مما يجدون من أعداء الإسلام، بل إن أعداء الإسلام من الكفرة يعلمون قوة هؤلاء القوم ويدركون أن سبب إزالة سلطانهم هم هؤلاء ولذلك يحاربونهم أشد المحاربة ويقفون لهم كما وقف أسلافهم مع الأنبياء.

أمّا أولئك الذين يرفعون شعارات الإسلام على واقعٍ جاهلي، وحقائق جاهلية فهم في فهم الكفرة قبل غيرهم أعجز من أن يحققوا نصرًا ربانيًا مؤزرًا في معركة الوجود بين الحق والباطل؛ لأنهم وإن لم يفهموا هذا من كتاب الله فهم أعداؤه لكنهم يفهمون هذا من سنن التاريخ وسيرورته. وأمّا المبتدعة فلا هداية القرآن ملكوا، ولا سنن التاريخ فهموا، فما أشقى المقلِّدة لهم، وما أصعب مهمة أهل الحق معهم.

في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه في هذه السورة تكاد تنحصر حجج إبراهيم عليه السلام على قومه، وخطابه لهم، يفتتح إبراهيم عليه السلام دعوته لقومه لعبادة الله واتقائه، وبَيَّن لهم خير هذا الأمر لأنفسهم، ثم بَيَّنَ لهم فساد ما يعبدون من دون الله من أوثان وأصنام. ولما كانت العبادة لا تنشأ إلا لطلب نفع أو دفع ضر فهي تقوم على الرغبة والخوف، فإن الخلق يُجبلُون على الخضوع للمالك الباذل، والانصياع للمالك القاهر، ومسألة الرزق والمال تشغل حَيِّز هذا الإنسان، وقد وُصف الإنسان في هذا القرآن في هذا الجانب كثيرًا، أي: التذلل والانكسار لحظة الحاجة،

---

[261] القَصَصْ : 57

[262] هود : 53

[263] البقرة : 118

والغرور والإعراض لحظة الاستغناء كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾[264]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[265] والآيات كثيرة في هذا الباب؛ ولذلك كان الإنسان فقيرًا بذاته، ومهما زعم البعض أن المعاني والقيم هي أساس حركته واختياراته فإنهم يسقطون عند اختبار المال والشهوة إلا المؤمنين بالله والدار الآخرة. وأمّا الآخرون فهي أَغْلِفة كذب يتاجرون بها على المساكين والجهلة، وكم مضى من رجال سُمُّوا رجال مبادئ حتى إذا فُحص عن سرِّهم تبين للناس بهيميتهم الشهوانية في حب المال والشهوات، وما كانت المبادئ المدَّعاة إلا سترٌ كاذب يخدعون به البهائم الذين يتبعونهم.

إبراهيم عليه السلام يذهب إلى هذا مباشرة ليبيّن أن ما تطلبون من رزق تحبونه أو تخشون ذهابه ليس بأيدي هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله تعالى، إنما الرزق بيد الله وحده، فهذه أوثان فارغة جامدة لا تملك من أمرها شيئًا، بل هي محتاجة لغيرها في الوجود والإمداد، وهذا شأن المعبودات كلها من أوثان وغيرها، فإن أمر العجز ليس مرتبطًا بكون هذه الأوثان حجارة صماء، بل إن أمر العجز عن نفع الغير عند الحاجة شامل لكل ما سوى الله تعالى من المعبودات الباطلة، ففرعون لم يُغنِ قومه شيئًا لما جاءهم الغرق في البحر بل قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَه وَمَا هَدَى﴾[266]، وعند الغرق لم يطلب إلا نجاة نفسه فقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[267]، ولذلك وَصَف حال هؤلاء الداعين لغير الله ممن لا يسمعهم ولا يستجيب لهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[268] هذا في الدنيا وأمّا في الآخرة فعقّب الله على ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[269]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[270]، فهذه المعبودات الباطلة التي يطمع الناس مددها ونصرها ورزقها عند الشدائد لن تغنِ عن نفسها ولا عن غيرها شيئًا.

ولما كان الناس يخافون الذهاب إلى طائفة الإيمان اتّباعًا وهجرةً وجهادًا بسبب الخوف من فوات الرزق والمال، لِما يستقر في أذهانهم طغيان معبوداتهم الباطلة وقدرتها، فإن إبراهيم عليه السلام بيَّن ضلال هذا الاعتقاد، وأن الرزق بيد

[264] الإسراء : 83
[265] يونس : 12
[266] طه : 79
[267] يونس : 90
[268] الأحقاف : 5
[269] الأحقاف : 6
[270] هود : 101

الله تعالى وحده فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ فهذه لم تكتسب سَطْوة القوة الموهومة إلا بما خلق لها – التابع الضال –، فالحجر هو الحجر، لكن الإنسان هو الذي يصنع منه بوهمه إلهًا يظن فيه السمع والبصر والحياة والقيامة على الغير، وهذا شأن كل المعبودات، فمن الذي أضفى على فرعون صفة التألُّه؟ إنهم الأمم الجاهلة الواهمة كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾[271]

وما من طاغوتٍ حجريٍّ أو بشري إلا وهو مَهِينٌ ضعيفٌ فقيرٌ في داخله وواقعه، لكن أوهام العابدين وخيالاتهم وجهالاتهم تخلق فيه بكذبها وإفكها ما ليس فيه، ولذلك فليس الشقاء على المعبود الوقح فقط إنما الشقاء الأكبر هو من قِبَل مرتبة الهوان حين يخضع لهذا الطاغوت المعبود الوقح.

ثم تأمّل هذه الجموع التي ترقُب وترتجف لذِكْر رجلٍ منهم، يعلمون ما فيه كما يعلمون ما في أنفسهم من البشرية الضعيفة، فيؤدون له فروض الطاعة والامتثال رجاء حظوة أو متاع زائل، فإن ذهب هذا إلى قبره لم يصبروا حتى ذهبوا إلى غيره يصنعون وثنًا جديدًا وإفكًا لامعًا، وما هي إلا جهالة المشركين الذين لا يعبدون الله ولا يمثلون أمره.

أيُّ رقيٍّ مزعومٍ هذا، وأيُّ تطورٍ في مدارك البشر وهم مازالوا وقد فتنوا الذرة وبلغوا في السماء ارتفاعًا وفي المحيطات علمًا ثم هم يعتقدون ألوهية البقر والبشر؛ فلا يغرنك مزاعم من لا يعقل أن البشرية قد تطورت في مداركها حتى صارت قادرة عن الاستغناء عن هدي السماء وشرائع الأنبياء، فها هم كلما ازدادوا معرفة بالكون ازدادوا جهلًا بأنفسهم وبربهم، بل وازدادوا عجزًا عندما تقع عليهم الكوارث التي يقفون معها موقف المستسلم الذليل، ويكون قُصارى علمهم أن يفسروا للناس كيف وقعت، وذلك بعد أن تأخذ مداها منهم.

أمّا أولئك الذين يبيعون حياتهم وأرواحهم لغير الله من أجل المال والرزق فها هم – وبواقعنا الحي – لا يملكون سقوطهم وحاجتهم إلا الشكوى أن آلهتهم قد تخلَّت عنهم وتركتهم في مصائبهم دون معونة.

إنهم هم مَنْ خَلَق الباطل ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، وهم يتعذبون به ويدفعون ثمن جهالاتهم الباطلة ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[272]

لقد وعد الله عباده بالنصر فنصرهم، ووعدهم بحلاوة الإيمان فذاقوها حتى أنستهم كل آلامهم، ووعدهم بالعزة فعاشوها وهم الحفاة العراة، وأما الآلهة الباطلة فهي من خزي إلى آخر، ومن مهانة إلى أشد حتى يأتي قوله تعالى عليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۝ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا

---

[271] الزخرف : 54

[272] الأعراف : 191-192

خَالِدُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[273]

يقول إبراهيم عليه السلام هذا لقومه حتى لا يغتروا بما يأتيهم من رزق وهم حال شركهم، وحتى لا يغتر غيرهم حين يجدون أن طاعة الطواغيت تُحصِّل لهم المال والشهوات، ولكن كل هذا عاجل مكر إلهي: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[274]

أمّا ما يُعانيه أهل الإيمان من التضييق حينًا في الرزق فإن هذا خاضع لقاعدة الإيمان المتقدمة في هذه السورة ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾، فإن صبروا وتيقَّنوا فسيكون لهم ما وعدهم الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾[275]، أمّا إن كان الخيار بين المغانم وبين تعذيب الكافرين بالجهاد وأيدي المؤمنين فإن الله يحب الجهاد والشوكة فيها: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[276] فيا لسعادة من عاش زمن هذه الإرادة الإلهية حيث الشوكة والجهاد، لا الغنائم والفيء حيث يقول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾[277]

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ هذه فاصلة تتلاءم مع ما تقدم من خطاب إبراهيم الخليل عليه السلام مع قومه، فإن العبادة هنا هي سؤاله هو – جلَّ في علاه – على معنى الدعاء والاستغاثة فيما يحتاج المرء ويرجو، وأمّا شكره فهو للنعم التي يراها على نفسه من فضل الله وعطائه، فالمرء بين هذين الحَدَّين في باب النعم، سؤال ما يحتاج وشكر ما اجتبى، وفي هذه الآية دليل على أن الدعاء والسؤال عبادة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[278]، هذا مع أن العبادة في نفسها تتضمن الحمد والشكر على النعم، لكن هذا كل من باب التفضيل الذي يتلاءم مع حال المخاطب لتفهيمه، وهو ليس من التكرار في شيء؛ لأن المعاني قد تجتمع وقد تفترق كما هو معروف في العربية.

أمّا قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فهو رد على من ظن في دعوة إبراهيم عليه السلام أن الدعوة إلى طلب الرزق من الله

---

[273] الأنبياء : 98-100

[274] آل عمران : 178

[275] الفتح : 20

[276] الأنفال : 7-8

[277] الحديد : 10

[278] غافر : 60

وشكره على نعمه هي قضية أخذ بالسنن الدنيوية، فالموافق لها منتفع بها في الدنيا والمعرض عنها خاسر في الدنيا، بل هذه في الحقيقة؛ أي دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه في ابتغاء الرزق من مظانه لها هذه العلاقة والحقيقة ولكن علاقتها الأعظم بما يجده المرء يوم القيامة، فإن سؤال الله لِما يحتاج، وشكره لِما أخذ خاضعة لقاعدة الحسنة والسيئة وهي ميزان الأحكام يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[279]؛ هذه من قواعد الحق التي يجب أن يتيقن بها أهل الإيمان، ويجب إبلاغها لأهل الإعراض، وهي أن الحق لا يكتسب قوته من غيره، لا الأتباع ولا غيرهم، كما أنه لا يفقد قوته بالعوارض التي تلحق به من جهل الناس به أو معاداته أو الزهد فيه، فالحق قوته في نفسه لأنه هو كذلك؛ ولذلك يدعو إبراهيم الخليل عليه السلام قومه إلى الحق مع شعور العزة الإيمانية أن الحق غني عنهم، وأنهم هم المحتاجون إليه، وهذه قاعدة في الدعوة مبثوثة في كتاب الله كما تَقَدَّم في قوله تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

كل المعروضات الدنيوية، وكل الدعوات غير دعوة الأنبياء وأتباعهم تأتي للآخرين وفيها مشاعر الحاجة إليهم، فتخضع للمساومات البشرية إلا دعوة الحق، فإنها على غير هذا النهج، إنما تأتي للآخرين وهي عزيزة الجانب، ممتلئة بالاستغناء، لكنها كذلك محمولة بمعاني الرحمة على الخلق، فهي عزة بغير كبر، وامتلاء بغير استعلاء.

ومن تأمّل هذا النهجَ القرآني في الدعوة مع رفع لافتة الابتلاء في بداية الطريق عَلِمَ أيَّ نوعٍ من الخَلْق الصادقين المقبلين على هذا الطريق، ثم عَلِم انحراف مناهج البدعة وهي تساوم على الحق، فتُزيل منه بعضه مَخافة إعراض الناس عنه، أو تذللًا لهم بأن الحق محتاج إليهم.

أمّا المعنى الثاني الذي تحمله الآية، فهي بيان دور الرسول، فليس هو إلا مبلغ، فإن لَحِق الناس بالحق فهي نعمة لحقت بهم، وعلاقة عبودية نشأت بينهم وبين ربهم، وما هو إلا حامل رسالة لهم، وإن أعرضوا فهم الخاسرون، ولن يلحق الرسول بهذا الإعراض أي نقص أو عار؛ ولذلك كان من تقويم القرآن لرسوله ﷺ أن يزيل من نفسه كل المعاني الذاتية والنفسية التي تلحق البشر في فطرتهم إن كذبوا في الخبر أو أعرض عن دعوتهم ومظانهم، فقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ

---

[279] العنكبوت : 18

﴿الْمُرْسَلِينَ﴾[280]

وفي هذه الآية من سورة الأنعام معنى داخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾، وهو أن نهج الأنبياء أن لا يغيروا شيئًا من كلمات الله بسبب إعراض الناس عنها، هذا إن حُمِل قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ على المعنى الشرعي، وأما إن حُمِلت على المعنى القدري فالمقصود هو بناء اليقين على جريان سنن الله بنصر الأنبياء وهلاك أعدائهم. ويشهد للمعنى المتقدم لهذه الآيات آيات أخرى من كتاب الله ﷻ منها قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[281]، وقوله تعالى: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[282]؛ وهذه الآيات هي لبناء نفسية الداعي على معاني الثقة بالوعد الإلهي، وبناء الثبات على الحق وعدم التنازل عنه إن سُووِم على بعضه من قِبَل الجاهلية. وهذه المعاني التربوية في كتاب الله هي أعمدة الحق في قلب الداعي لمجابهة فتن الإغراء الباطل أو فتن الإرهاب والتخويف، وكلاهما من أعمال الجاهلية ضد أهل الحق لصرفهم عن بعض الحق؛ لأنهم يعلمون أن هذا التنازل يعني فقدان قوة الحق في أصل وجوده، إذْ يصبح الداعي والعالم لدين الله فاقدًا لمعنى تعبيد الناس لربهم وخضوعهم لأوامره؛ لأن العبادة لا يكون أصلها إلا على معنى التسليم الكلي لأمر المعبود الحق، فإن ساوم العابد في أمره آل الأمر إلى فقدان معنى التعبد إلى ما يجري بين الناس من عقود وعهود، وهذه قاعدتها غير قاعدة التعبد الذي يدعو إليه الأنبياء، وهذا تفهمه الجاهلية اليوم كما كان يفهمه دهاقِنتُها قديمًا، وقد استجاب الأنبياء وأتباعهم لهذا التحذير، فصبروا حتى أتاهم وعد الله.

أمّا أهل زماننا فإنهم أخضعوا الشريعة لحساب العرض والطلب، وزعموا أن هذا فعل السياسي المحنك، بل وزعموا كذبًا أن هذا هو حكمة الدعوة وأطلقوا عليه مسميات الاحتواء والتغلغل، ففقدوا الرشد وفقدوا النصر الإلهي وفقدوا احترام البشر، وصار أمرهم إلى حال غيرهم من أهل الباطل في الخداع والتعلب والمكر تحت مسمى السياسة والحكمة كذبًا وزورًا.

وقاعدة القرآن في ذلك جلية واضحة وهي قوله تعالى كما في سورة يونس: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[283] فالداعي متبع، وهو اتباع له ضريبته من البلاء فاقتضى الصبر، لكن عاقبة الأمر هي على ما قدر الله من النصر.

[280] الأنعام: 33-34

[281] الكهف: 6

[282] فاطر: 8

[283] يونس: 109

أمّا أهل العصر فلم يقعوا في المهيع الباطل فقط، بل ذهبوا في الشر أبعد من هذا، إذْ صار بعض المفتين إلى الإفتاء بالباطل، أو إلى تسمية الباطل بأسماء الحق، أو تسمية الحق بإطلاقات أهل الباطل التي يحبونها، ويزعمون أن هذا يحبب الناس بالحق، أو يدفعهم للإقبال عليه، فلم يصيبوا شيئًا من هذا، بل صاروا ألعوبة بيد الباطل ضد أهل الحق، وإن جنوا شيئًا فإنما هو مدح أهل الباطل لهم أنهم معتدلون غير متعصبين، وحكماء غير متشنجين، وهو ما حذّر الله نبيه من سلوكه فقال ﷺ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾[284]، فصاروا معتدلين عند أهل الباطل ومتنورين ومصلحين، فوضع الشر العظيم في الآخرة؛ وذلك بأن صار لأهل الباطل اليقين على ما هم عليه من الشرك والكفر والجاهلية، وأصل دعوة الأنبياء هو إبطال أديان الجاهلية للدخول في السِلْم كافة كما أمر الله، لكن لما جاء هؤلاء المفتون فزعموا أن الإسلام يؤيد ويقر ما هم عليه، بل إن الإسلام عند هؤلاء لا يكتسب المدح إلا بسبب مشابهته لهم في ما يعتقدون من دين يرون أنه الحق الذي يصلح معيارًا لكل القِيَم في الأرض، صار ثبات أهل الباطل على دينهم أمرًا محسومًا لا شك فيه، وهذا من أعظم الباطل في الأرض، وهو على الضد من دين الأنبياء ودعوتهم.

فشتان بين دعوة الأنبياء ومنهجهم في الدعوة إلى الله وبين ما عليه المبدِّلون اليوم؛ وكل ذلك لأن القرآن صار مجرد عمومات عند أهل العصر، بل هو عند الكثيرين مجرد شعار تحته الأمزجة الشخصية والآراء الذاتية وقيم الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[285]

ها هنا نموذج بيِّن لمن أراد أن يفهم الأسلوب القرآني في الخطاب، وهو الذي سمِّيته في مكان آخر بـ«فتح الأقواس» وهو الذي يسمونه بـ«الاستطراد» ومن لم يفهمه على وجهه لم يستطع أن يفهم التناسب بين الآيات، ولم يستطع أن يدرك عناوين السور وموضوعاتها الرئيسية، وهذا الأسلوب يجدونه الناس في كلامهم، إذْ أن المرء يشرع في موضوع كلي، قد يبدأ به، وقد يقدم له ما يلائمه، وقد يأتي في حديثه إلى أمر خادم لهذا الموضوع والبحث؛ وهو لأهميته في بناء المعنى لا بُدّ من فتح سعة به لشرحه وإبانته، فيظن من لا يراعي هذا أن هذا تغير عن الموضوع، وخاصة إذا طال بيان هذا الأمر، وليس الأمر كذلك، بل هو في الحقيقة فتح لقوس لا بُدّ من الانتباه إلى أنه سيغلق بعد حين ليعود إلى العنوان الرئيسي، وتصبح الحاجة إلى التفكر حين يأتي في هذا الموضوع الفرعي أمر آخر لا بُدَّ فيه من فتح قوس آخر له والتنبيه عليه؛ ولذلك كان كتاب الله تعالى هو الكتاب الذي يُمتحن صاحبه، ليكون مراتب الناس في الإيمان بمقدار فهمهم له ومعرفة طرق الاعتبار والتدبر، إذْ من دون ذلك لا تنشأ لذة إدراك

---

[284] الإسراء : 73

[285] العنكبوت : 19

المعاني العظمى فيه، وهذا الأمر هو أحد مفاتيح فهم بنية السورة في صبغتها الكلية، أما فهم الأسلوب القرآني في عرض المواضيع فهو باب آخر – تَقَدَّم بعضه – مثل:

- الإجابة على الأسئلة النفسية دون حضورها لفظًا.
- أو الانتقال من أسلوب الخطاب البياني إلى القصة القرآنية لا للتمثيل فقط ولكن لبحث جديد في سياق الأمر الكلي كما رأينا في ذكر قصة نوح، فهي ليست للتدليل على أمر سبق، وإن قال بذلك بعض أئمة التفسير كابن جرير.

لكنها في الحقيقة لمعالجة أمرٍ مهم في بيان مرحلة الإيمان والابتلاء فيه وهو أمر الزمن واستعجال النتائج.

ها هنا لما قال تعالى على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فنشأ الكلام على أمر الآخرة؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ وهذا أمرٌ يتعلق بالخبر، وأما ترك التوحيد وإفراد العبادة فنقيضُهُ الإعراض، فبدأ الحديث عن قدرة الله تعالى بإعادة الخلق بعد موتهم، فذكَّرَهم ببدء الخلق، وإعادة الخلق مع وجود الأصل أهونُ عليه كما قال تعالى في السورة التالية لسورة الشعراء وهي سورة الروم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[286]، والاستدلال بالقدرة على الخلق الأول على البعث تكرر في القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[287]، يقول له هذا عَقِب قولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[288]

وقال سبحانه: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[289]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[290] وهذا من أعظم الاستدلال وأوضحه.

وفي هذه الآية بيان رؤية الناس لإعادة الخلق كما يرون الإنشاء من العدم، فهذه النسمات من البشر والحيوانات إنما هي خلق جديد وإيجاد من العدم وخاصة الأرواح والنفوس، وأما إعادة الخلق فإن الناس يرون كيف يتحول الخلق من حال إلى حال كنمو الأبدان من المطعومات وغيرها، كما يرون نمو الأشجار من الأرض وخيراتها، فكل هذا من إعادة الخلق، والذي يَحُول بين الناس وبين هذه الآيات البيِّنات الواضحات هو ظنونهم أن جريان السنن

[286] الروم : 27
[287] الإسراء : 99
[288] الإسراء : 49
[289] الروم : 50
[290] الأحقاف : 33

يعني أنها تملك قوة بذاتها، مع أن هذه السنن الإلهية في الخلق إنما وُجدت ابتداءً من الله تعالى وخَلقِه لها، وهي كذلك لا يجري فعلها اضطرادًا إلا بقيام خالقها عليها في كل شؤونها وزمانها وأعمالها.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فعظمة المخلوقات وعددها وتنوعها في وحدتها، ووحدتها في تنوعها إنما أمرُ إيجادها وبَعْثها يسيرٌ على الله العظيم؛ ذلك بأن الله إنما يخلق بالأمر كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾[291]

وقد تكرر في القرآن وصف قيام الله على خلقه، وعِلْمه بمخلوقاته على وجه الإحاطة لها من كل جانب باليُسْر كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[292] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[293]

فهذه مراتب القدر، الخلق والإيجاد والعلم بها وكتابة هذا العلم، كلها في هذه الآيات وقيام الله عليها علمًا وكتابة وخلقًا يصفها ربنا على نفسه باليسير؛ وذلك تعظيمًا لشأن الله سبحانه وتعالى جلَّ في علاه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[294]؛ كانت الآية السابقة قد علَّقت علم البشر لبدء الخلق وإعادته على رؤية الناس لها، أمّا كيفية بدء المخلوقات عمومًا وأفرادًا فقد علَّق الله العلم بها بقوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، والسير هنا هو الفحص والنظر والبحث؛ والفحص في الأمر الكوني للدلالة على صدق الأمر الشرعي منهجٌ قرآني، والناس يحتاجون للدلائل بمقدار العوارض التي تَكتنِفهم من الخصوم ومن النفوس كذلك – هذا كما ذكر أهل العلم في باب الكرامات – فإنها تكثر في زمن الشكوك لا اليقين، ذلك لاستغناء أهل اليقين عنها بما عندهم في قلوبهم من العلم، والقرآن الكريم تجري معانيه في الكونيات بحسب علوم الناس، ولا يشترط أن تجري على معاني العرب الأوائل بسذاجتها، فليس الأمر في هذا الباب – كما قال الشاطبي في الموافقات – من وجوب إجرائها على معاني العرب في عدم تكلفهم في التعمُّق والتفضيل، بل إن الله يُقيم في كتابه من الدلائل على صدق الرسول في تبليغه وأنه من عند الله بحسب حاجة الناس وعوارض زمانهم من المخالفين وغيرهم، وليس معنى هذا أن مع المتأخر علمًا زائدًا عن عِلْم المتقدم كما يُخَيَّل للبعض؛ لأن اليقين على الكتاب له أسباب متعددة، فما كان يعرفه العرب الأوائل من إعجاز القرآن من جهة لغته التي يتيهون على غيرهم بما عندهم من الذوق بها لا توجد اليوم عند المتأخرين، فهذا باب من

---

[291] يس : 82
[292] الحج : 70
[293] فاطر : 11
[294] العنكبوت : 20

الإعجاز يكاد يكون مجرد عنوان، فإن حصل للمتأخرين باب من الإعجاز يُلائم عِلْمهم فإنما هو إقامة لباب قد سدّه غيره عنهم، فلا يحصل للمتأخر علم زائد عن علم المتقدم، خاصة أن مقاصد القرآن الأولى تحصيل المعاني القلبية والتشريعية وهي معاني الهداية وهذه تحصل بالبيان أكثر مما تحصل بالمعجزات الكونية التي يدركها الأواخر بحسب علومهم.

ثم إن الكثير مما يطلبه المتأخرون من دلائل علمية إنما هي لرد التهمة عن الكتاب، ولتحصيل العلم بصدق الرسول، وإن كان الكثير منها يزيد اليقين والإيمان عند المؤمنين قبل سماعهم لها، لكن ما كان يَعْلمه الأوائل من دلائل في الكتاب على صدق الرسول إنما مقصده الأول زيادة اليقين والإيمان، فكان ما يحصُل للأوائل من عِلْمهم بالقرآن خيرًا مما يحصُل للمتأخرين، ومما يشهد لهذا هو زيادة التعبد التي تحصل لهم بعد علمهم من خلال طريقهم، وأما في أيامنا فمع ما يظهر من معجزات علمية وكونية في القرآن إلا أن آثار هذه العلوم أقل في زيادة التعبد والإخبات والإنابة، فدلَّ على أن علوم الأوائل خيرٌ من علوم المعاصرين، مع أن العلم الذي يتحدث به المجتهدون اليوم في هذا الباب حق وصدق في أصله ولكن يُعرف التَّفاضُل بين العلوم بما تُحدِثه من آثار على القلوب والعبادات والهداية.

والقصد، أن السير في الأرض لمعرفة الحقيقة القرآنية لا يجوز لأحدٍ أن يجعل معناه على الوجه الذي مارسه الأوائل؛ لأن مقصود السير إنما يتحدد معناه بما يحتاجه أهل الوقت من دلائل تُثبت لديهم هذه الحقيقة بما يناسب علومهم.

وفي هذه الآية ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ جعل الله إدراك المرء لحقيقة كيفية الإنشاء الأول طريقًا لإدراك وجوب النشأة الآخرة، وهذه آية لا أعلم حقيقتها أو من تكلم عنها إلا إذا فُسِّرت بآيات أخرى تُبين تغير الناس أطوارًا ليعودوا إلى أصلهم الأول كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[295]، أو أن معناها أن إثبات النشأة الأولى فيه من القدرة العظيمة التي تضاهي إعادة الشيء بعد وجود مادته وأصل وجوده، والله أعلم.

وقد أمر الله السير في الأرض، وأمر بالتفكر في آياته الكونية في آيات متعددة، كما أمر السير في الأرض للنظر في عواقب الأمم السابقة كما قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[296] وغيرها، ومقصود ذلك:

- نفي العوارض والتُّهم عن الرسول ﷺ.

[295] الأنبياء : 104

[296] النمل : 69

- وكذلك تحصيل الخوف من الله تعالى أن يصير المرء إلى مقامات المعذَّبين.
- ومن أعظم فوائدها هو التسبيح والإخبات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[297]؛ ولعلَّ هذه الآية تكشف كيف يكون النظر إلى بدء الخلق سبيلًا لليقين على الآخرة؛ لأن الآخرة هي أعظم دلائل حكمة الرب وعَدْله وقهره، فمن رأى حكمة الرب في خلقه تيقن أن أمر الآخرة لا محالة قادم ولن يشك فيه؛ لِما يعلمُ من تمام عدل الله وقهره لعباده، إذْ مِن دون الآخرة يكون الوجود عبثًا كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[298] فجعل عدم الرجوع إليه في يوم القيامة من عبثية الوجود والله مُنَزَّهٌ عنه.

ولذلك كان أشدُّ الناس اتهامًا لحكمة الله من لا يؤمن بالآخرة، فنشأ عندهم الجهل في حكمة وجود الألم في الخلق، والظلم في الوجود، فلمَّا لم يؤمنوا بالآخرة جعلوا الألم والظلم سبيلًا إلى اتهام الرب جهلًا وضلالًا، وعامة كفر الملحدين في التاريخ الإنساني واليوم هو هذا الباب كما هو مذكور في مكانه. فالإيمان بالآخرة هو الآية التي يعود إليها تفسير الأقدار في هذه الدنيا، ومن قرأ في تاريخ الردود على الملحدين وجد عند المتكلمين ضعفًا حين يُلغي هذا الركن في تفسير حكمة الله في إيلام الخلق ووقوع الفساد في الأرض؛ لأن كل محاولات تفسير الحكمة الربانية على وجهٍ عقلي قاصر على هذا الوجود دون الدار الآخرة سيكون ضعيفًا غير مكتمل. والقصد، أن السير في الأرض يكشف حكمة الخلق مما يؤدي إلى الإيمان بالآخرة على هذا المعنى من تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ من عَلِم قدرة الله المطلقة المحيطة لكل شيء لم يتوقف في الإيمان بأن إعادة الخلق غير معجز على خالقه؛ ولذلك لما سأل المشركون عن النشأة الآخرة بقولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، ردَّ الله عليهم: ﴿قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ۝ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾[299]فهذا الحديد والحجارة وهي أشد منكم قد خلقها الله، وهي موجودة بين أيديكم تُشكلونها كما تريدون؛ فهل أنتم أشد من الحجارة والحديد حتى يمتنع إعادة خلقكم وتشكيلكم؟ فتمادوا بالإنكار: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾[300]فردَّ الله عليهم: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[301]؛ والفِطْر هو البدء بالشيء على غير مثالٍ سابق، وهذا كقوله

[297] آل عمران : 190-191
[298] المؤمنون : 115
[299] الإسراء :50-51
[300] الإسراء : 51
[301] الإسراء : 51

تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[302]، فلما انقطعت حُججهم ذهبوا إلى السؤال عن زمن الإحياء: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾[303]، فجاء الرد: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[304]

قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾[305]؛ هذه ردٌّ عن سؤالهم النفسي عن حكمة النشأة الآخرة ويوم القيامة، فهي وإن كانت من قدرة الله القادر على كل شيء، لكن لا يقع الشيء إلا لحكمة، وأما الحكمة العظمى من يوم القيامة فهو المذكور هنا ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾

أمّا تقديم العذاب على الرحمة يوم القيامة في هذه السورة فهو لأسباب، منها:

- أن عدد المعذبين يوم القيامة في جهنم أكثر من أهل الرحمة من أهل الجنة، فإنه لما يُبعث آدم عليه السلام بعث أُمَّته إلى النار يكون من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون من أهل النار، هذا مع أن الرحمة يوم القيامة أبلغ الرحمة وأوسعها، فإن الله لم يُنزل إلى الأرض إلا جزء واحد من مئة جزء من رحمته، وبهذا الجزء يتراحم الخلق، حتى أن منها أن ترفع الدابة رجلها حتى لا تطأ رضيعها، ويوم القيامة يسبغ الله كل رحمته إلا أنها لا تصيب إلا ما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾[306] إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[307] ففي هذه الآية من سورة الأعراف عمَّ الله رحمته بالخلق وجودًا وإمدادًا، وخصها يوم القيامة لأهل طاعته.
- ومنها أن المخاطبين هم أهل إعراض وكفر، فكان بِدْء ذكر الجزاء الملائم لهم من العذاب دون غيرهم من أهل الطاعة، وذلك كقوله في سورة المائدة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[308]؛ ذلك لأن هذه الآية جاءت عقب ذكر عقوبة السرقة، فذكر العذاب الملائم لهم. وهو كقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[309]؛ ذلك لأن الحديث يدور حول الكافرين الذين اتخذوا عبد الله عيسى وأمه – عليهما السلام – إلهين من دون الله تعالى.

---

[302] الروم : 27
[303] الإسراء : 51
[304] الإسراء : 51
[305] العنكبوت : 21
[306] الأعراف: 156-157
[307] الأعراف : 157
[308] المائدة: 40
[309] المائدة: 118

وأمّا في بقية المواطن في القرآن فإن المغفرة مُقدَّمة على العذاب؛ وذلك لقوله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي))

قوله تعالى: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ فإنه سبحانه لا يُسأل عما يَفعل وهم يُسألون، لكن هذا مقيد بالعدل الإلهي الذي أوجبه على نفسه؛ وذلك بأن يصيب برحمته من يستحقها، ويصيب بعذابه من يستحق، بل إنه ﷻ يُسبغ برحمته من وَجَب عليه بعض الذنوب؛ ذلك لأن الرحمة من باب الإحسان، والله ﷻ له المثل الأعلى في السموات والأرض جلَّ في علاه.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: إذا مُتُّم صرتم إليه، والقلب هو التحوُّل، فلمَّا كان وجهة الناس في الدنيا إلى جهةٍ فإن ماتوا صاروا إلى غيرها، وحينها سيلاقون الله تعالى.

ولما كان قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ مُوهِمًا للبعض أن القلب بعد الموت مصيره إلى قبضة الله فإنه في هذه الدنيا ليس كذلك، قال الله تعالى رادًا هذا الوهم: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[310]، وبهذا تعلمُ لماذا قُدِّمَت الأرض هنا على السماء بخلاف أكثر المواطن في القرآن، فإن السماء أشرف من الأرض فتُقدَّم غالبًا إلا في مواطن يكون في تقديم الأرض أبلغ كهذا الموطن.

وكذلك في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[311] فإن الخطاب متعلق بعلمه بما عليه أهل الأرض من أحوال فاقتضى تقديم الأرض على السماء.

ففي قوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ بيان خضوع الخلق في هذه الدنيا مع مشيئتهم في الاختيار لله ﷻ، وإن أراد بهم شيئًا لا يَحجب أمره شيء، لا من قدرتهم ولا من قدرة غيرهم، سواء كان وليًا لهم أو نصير. وهذا الخطاب من إبراهيم عليه السلام على هذا النسق إنما هو خطاب لقوم مُعرضين، وهم في إعراضهم تَتيهُ نفوسهم إلى مواطن الغرور والكبر، فيُقرِّعهم ببيان قوة الله وقدرته عليهم وخضوعهم لأمره على كل حال؛ محاولة منه لتنكسر نفوسهم فتؤوب لرشدهم، ولذلك بعدها لم يَذكر لهم جانب الرحمة الإلهية لغلبة الإعراض والكفر والتكذيب عليهم، فقال لهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

---

[310] العنكبوت : 22

[311] يونس : 61

﴿أَلِيمٌ﴾[312]، وهذا بيانٌ جلي لِما تقدم أن الرحمة يوم القيامة مخصوصة لقوم، وأقرب الخلق إليهم هم المحسنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[313] وذلك أنه ﷻ لما ذكر أن رحمته لمن يشاء وعذابه لمن يشاء بيَّن هنا أن الكَفَرة بالرسالة وباليوم الآخر ليس لهم يوم القيامة نصيب من رحمة الله ﷻ.

وقد يسأل سائل: كيف يئسوا من رحمة الله تعالى وقد ذكر الله عنهم أنهم يسألون الملائكة تخفيف العذاب أو هلاكهم حتى يُفلتوا من النار كما قال تعالى عنهم في سورة الزخرف: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[314]، أو كما قال الله عنهم في سورة غافر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۝ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[315]، أو كسؤالهم الله تعالى الخروج منها للعمل الصالح كما في سورة فاطر: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[316]، أو كسؤالهم أهل الجنة أن يُفيضوا عليهم شيئًا من النعم كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[317]

فهذه أربعة مواطن في القرآن تُبيِّن سؤالهم الله والملائكة عمومًا، ومالكًا خازن النار خصوصًا، وأهل الجنة أن يذهب عنهم عذاب النار أو بعضه، وهذا يدل على عدم يأسهم، فكيف يوفق هذا مع قوله تعالى: ﴿يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾؟

فالجواب من وجهين:

1. إمّا أن يكون قوله تعالى: ﴿يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ على معنى إخبار الله لهم أي: ما يُسمى بالإنشاء، لا على معنى إخبار الله عنهم، أي: إنه يقول لهم: لن تصيبكم رحمتي.
2. وإمّا أن هذا اليأس يكون بعد أجوبَة مَنْ تقدَّم لهم، فهذا حال وهذا حال.

وكلا المعنيين تحتمله الآية، وبالقولين قال أهل التفسير، دون الإشارة إلى موطن حصول اليأس بعد معاينة جهنم أو الدخول، أو بعد حوارهم ورجائهم كما تقدم في الآيات السابقة.

[312] العنكبوت : 23
[313] الأعراف : 56
[314] الزخرف : 77
[315] غافر: 49-50
[316] فاطر : 37
[317] الأعراف : 50

وهذا الالتفاف هنا من ضمير المخاطَب إبراهيم الخليل عليه السلام إلى خطاب الله تعالى بقوله: ﴿يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ إنما جاء لتعظيم هذا الشأن، وهو أن حرمانهم من الرحمة إنما تكلم الله به دون الخطاب المتقدم لأهمية القول وجلالته، فإن الالتفاف في الخطاب يُنبِّه السامع ويشدُّ المعرض، وإذا كان في كلام الناس وخطابهم أن المرء قد يستغني بغيره في التبليغ عن أمور، فإنه إذا اشتد الأمر وكان عظيمًا كان صاحب الشأن أَوْلى في التبليغ عن نفسه، فهل هناك أعظم قولًا من أن يطرد الله امرءاً من رحمته؟

فجلالة القرار والحكم تقتضي أن ينسبه الله لنفسه، وأن يبلغه للمعنى به من جهة كلامه هو.

هذا مع وجود وجه قوي وهو أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو قول خارج عن خطاب إبراهيم عليه السلام، إنما هو من جدال الحق لهم في إنكارهم، وهو ما تَقدَّم من الشرح، أن هذا من الأسلوب القرآني في فتح الأقواس.

ومن تأمّل هذه المعاني من خطاب إبراهيم عليه السلام رآها شاملة لأمورٍ جليلةٍ مهمة:

1. فهي تُبين حق الله سبحانه وتعالى في التأليه والعبادة، وأن هذا الحق له؛ لأنه الرب الرازق لهم دون غيرهم من معبوداتهم الباطلة، وهي معبودات أنشأها الناس أنفسهم، لا لكونها حقائق.
2. وهي تُبيِّن حقيقة يوم القيامة وترد فيه على المنكرين له بأدلة تخضع لها قلوب وعقول المنصفين، سواء بالنظر العقلي إلى قدرة الله، أو بالنظر الخلقي إلى حكمة الله.
3. كذلك تُبين إحاطة قدرة الله كبشر جميعًا، وأن إعراض المعرض ليس لِما يظن جهلًا أنه خارج عن هذه القدرة، بل هي حكمة الله ليكون للرحمة موقفها وللعذاب موقعه.
4. ثم هي تُبيِّن الجزاء الأخروي للمنكرين واستحقاقهم للعذاب لتكذيبهم وكفرهم.
5. وهي تُبيِّن مهمة الرسول، وهي البلاغ، ومن تأمل هذا الموطن وهو قوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ ووقوعه بين خطاب كله يدور حول حق الله وقدرته وحكمته وإحاطته وجزائه، تَبيَّن له أن قضية الوجود ليست لِما يقع بين البشر أنفسهم من أمور، إنما أحكام البشر وأوصافهم ثم مصائرهم محكومة بما بينهم وبين الله، وهذه قضية لا يُقيم لها شأنًا إلا أتباع الأنبياء من الدعاة إلى الله، وأما أهل السياسات الباطلة فلهم مناهج أخرى باطلة وهي معروضة اليوم ومُزيَّنة بين الناس بالباطل.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[318]؛ بعد هذا الخطاب الإبراهيمي والحِجَاج القرآني لقوم إبراهيم، وهو خطاب يكشف لكل قارئ أنه خطاب عبودية، ومن خلاله يعرف الداعي صورة جليَّة لحقيقة الداعي إلى الله، ونوع خطابه، وقاعدة الاختلاف بين المؤمنين وغيرهم، كان الجواب من قومه، وهذا الجواب هو بيان لإحدى صور البلاء التي يمتحن بها المؤمن في رحلة إيمانه، ومسيرة دعوته لقومه، فذكرُ إبراهيم عليه السلام وقصته بهذا السياق إنما هي داخلة في مفتتح السورة المنبئ أن الإيمان مبتلى، لا لحقيقة جرمٍ يرتكبه، بل لأنه يدعوهم إلى الله ويخوفهم الدار الآخرة، وقد رأينا خطابًا علميًا وحقائق كونية تستدعي حقائق غيبية، فالحديث ها هنا في ساحة حوار، إلا أن قومه كان جوابهم بعيدًا عن سلاح هذه الساحة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ فكان جوابهم هو قرار البطش والإيذاء، وهذا لو تأملته لرأيت أن خطابهم كان متشككًا في القرآن ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ مما يدل أن قرار إيذاء إبراهيم وتعذيبه كان سابقًا لحادثة كسر الأصنام، بل إن قومه أبغضوه وتآمروا على تعذيبه قبل أن يتخذ قراره بكسر أصنامهم، ذلك بأن مواطن كسر الأصنام في القرآن – وهي في موطنين في سورة الأنبياء وسورة الصافّات – كان القرار حاسمًا بالحرق في النار، أما ها هنا فهُم بين خيار القتل أو التحريق، وبهذا يستطيع أن يَحتج كل عامل لدين الله تعالى على وجه يوافق دعوة الأنبياء ومنهج الرسول بالدعوة والجهاد أن عداء الكافرين للمؤمنين لم تُنشؤه الأعمال المادية ضدهم، بل هم يعادون الحق حتى لو لم يأتِ الداعي إلا بمجرد الكلمة، ولهذا شواهدٌ في قوم نوح، فإن نوح ذَكر عمله معهم فقال كما في سورة يونس: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾[319] فهذا مُجمل ما فعله نوح عليه السلام؛ الثبات على موقفه ودوام تذكيره لقومه بالحق الذي أُرسل به إليهم، ثم ذَكر لهم مواقفهم هم معه فقال: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[320] ذلك لأن منهجه عليه السلام الذي أمر به هو حال ابنَيْ آدم حين قال لأخيه: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾[321]

وموقف نوح عليه السلام هو موقف هود أمام قوم عاد فإنه قال لهم كما في سورة الأعراف: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[322] فلم يتخذ معهم أي موقف مادي، ومع ذلك عادوه وآذوه، كما قال الله عنهم في سورة هود: ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾[323]

---

[318] العنكبوت : 24
[319] يونس : 71
[320] يونس : 71
[321] المائدة : 28
[322] يونس : 102
[323] هود : 55

وهو موقف شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة فإنه قال لهم: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[324]، فردوا عليه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[325] فلا يظن أحد أن إجرام أهل الكفر ضد الدعاة والمصلحين إنما يكون إن أتوا بالمواجهة والأفعال المادية، فإن أتوا بالكلمة فقط وجدوا آذانًا سامعة وقبولًا حسنًا.

وهذا وإن قال به البعض ممن ينتسب للكفر الإسلامي إلا أن قائليه لم يفقهوا التاريخ الإيماني كما هو في القرآن الكريم، كما أنهم لا يعلمون حقيقة الكفر حتى وإن ادَّعوا فقه الواقع والبصيرة في السياسة. إنهم يقولون هذا ردًا لحكم الجهاد، وحكمه في واقعهم ليس في مرتبة الاستحباب بل هو واجب في الشرع لا يملك العبد إلا أن يمتثل أمر الله فيه، لكنهم لجهلهم يجعلون الجهاد في مرتبة الاختيار والمباح، ثم هم يمنعونه بمثل هذه الظنون الجاهلة.

فإبراهيم عليه السلام يخاطبهم بالحجة والعلم وهم يجيبونه بالتهديد بالقتل والإحراق، ثم صار الأمر إلى ما قاله سبحانه وتعالى عنه في قصة كسر الأصنام، فأنجاه الله منهم ومن نارهم حين جعلها بردًا وسلامًا عليه.

فهذا حال ابتلاءٍ آخر، يُبيّن الله فيه قاعدة الرزق التي تشغل الناس وخشيتهم من اللحوق في ركب الإيمان؛ لأنه ركب الابتلاء، ويُبيِّن الله سبحانه وتعالى فيه عاقبة الثبات والصبر واليقين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[326] يدلُّ على عودة الخطاب إلى سياق السورة في بنائها العلمي والنفسي للمؤمنين وهو يخبرهم في مَطْلعها بقدر الابتلاء للإيمان الذي أتوا إليه والْتَحقوا بِرَكْبِه، فإن الابتلاء لا يدوم إنما عاقبة الصبر عليه، النصر والنجاة. وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ يدلُّ على نسب جديد لهؤلاء الناس، فإن القوم لا يكونون كذلك لمجرد الأعداد المجتمعة، إنما تُقال لمن صار بينهم نَسبٌ ورابطة، فصار المؤمنون كذلك بهذا النسب الجديد، وهو نسب أعظم من كل نسب وأُخوَّة أقوى من كل رابطة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[327]

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾؛ سياق هذه الآية يدلُّ أن الخليل عليه السلام قالها بعد أن نجّاه الله من النار، فقد ألقاها على مسامع قومه قبل أن يفارقهم مهاجرًا، وهذا كما يتلاءم مع سياقها

[324] الأعراف : 87
[325] الأعراف : 88
[326] الروم : 37
[327] الحجرات : 10

كذلك يتلاءم مع معناها، فإن إبراهيم ﷺ قد قطع علائقه مع قومهم، وانماهت المودة؛ لأن مودة المؤمنين إنما تكون في الله، إذْ يجتمع المرء مع الآخرين على هذا الوثاق وهذه الوشائج الربانية العظيمة، أما هم فقد توادوا على عبادة غير الله من الأوثان، وهذه مودة باطلة وضعيفة، فإن المرء إن لم يتركها في الدنيا إقرارًا بباطلها كما فعل إبراهيم حين خرج عن زُمرة قومه في المودة والحب والصلة، فإن من بقي فيها سيكفر بها يوم القيامة، بل وتنقلب إلى بغضٍ ولعنٍ وشتيمة، وكل ذلك ليس بنافعهم بل مأواهم النار، ولن يُنجد بعضهم بعضًا كما قال تعالى عنهم: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾[328]

وهذا الذي قاله إبراهيم الخليل لهم في الدنيا هو ما سيقع منه حقًا يوم القيامة كما ذَكر عما سيقوله قومه يوم القيامة وهم في النار كما في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۝ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[329]، فقول الخليل ﷺ موافق لحاله وهو يقطع حباله معهم هذه إذْ يريد هجرهم وترك الصلة بهم، وهذا إنما وقع بعد النجاة من النار. وهذا الإعلان الإبراهيمي هو شعار المؤمنين في الكفر بالمودة القائمة على صلات الكفر والضلال، فإنها وإن رأى الناس أنها نافعة لهم في الدنيا بما تجلب لهم من شهوات عاجلة إلا أنها عذاب وغضب يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فهو قد يقع معناه في الدنيا إن وقع بعض معاني يوم القيامة في هذه الدنيا، فإنه إن وقع لهم بعض الخسران في الدنيا، ورأوا أن هذه المودة لم تحقق لهم شهواتهم فإنه سيقع بينهم ما ذكر الله عنهم يوم القيامة من الكفر ولعن بعضهم بعضًا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ﴾ فيها بيان إحدى آثار اتخاذ الشرك في الدنيا، وما يريده المشركون منه، فها هو الشرك بعبادة الأوثان يتخذ بين الناس علاقة سياسية واجتماعية بينهم، وليس مجرد أمرٌ تعبُّدي مجردٌ لا تأثير له على سلوك الناس ومواقفهم كما يظن البعض، بل إن الشرك النُسُكي في العبادة، تسير آثاره إلى مواقف الناس ولاءً وبراءً، وحبًا وبغضًا، فتصبح العُصبة على أساسها دون غيرها، ولذلك من يظن أن عبادات الناس هي أمر قلبي لا أثر له على مواقفهم السياسية والاجتماعية هم واهمون، بل قد انطلت عليهم ألاعيب الشيطان، وهو أمر بَيِّن في حياة البشرية تاريخًا وحاضرًا ولكن يأبى بعض الزنادقة المنتسبين للإسلام إلا الإنكار على أهل الإسلام أن يكون الدين هو الجامع لهم، وهو الرابط بينهم، بغضًا للدين وكراهية لوشائج الحب الإيمانية، وإنكارًا لأحكام الشرع.

---

[328] الصافات :22-25

[329] الشعراء :96-101

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ دلَّ على التشريع، وهو أمرٌ اتفاقيٌّ بينهم تَمالؤوا عليه وجعلوه دينًا، وقد دل هذا على أن أي تشريع يتخذه البشر في التواد والترابط والتناصر على غير حكم الله تعالى هو اتخاذ شريك مع الله تعالى، وهو كفر به، ودين إبراهيم ومِلَّته يوجبان هجرانه، وبهذا الموقف الذي سلكه إبراهيم مع قومه تعلم موطنًا جديدًا من مواطن قصته في سياق السورة، بل في عنوان السورة وهو الهجرة في سبيل الله تعالى؛ لأن الهجرة مبتدؤها هذا الإعلان الإبراهيمي وهو قطع المودات والعلائق والصلات الجاهلية، والدخول في مودّة الإيمان والولاء له.

فقوم إبراهيم قد استقرت موداتهم على معاني الشرك والضلال، وها هو يعلن أن هذه مودات باطلة، ويجعل ميزان ضلالها عدم صلاحيتها ليوم القيامة، وهو دين الله القويم الذي يُخطِّؤه زاعموا الفكر الإسلامي اليوم حين يقومون حياة البشر وروابطهم على مصالح الدنيا ومنافعها، ويُرجؤون أمر الآخرة إلى الأمر القلبي فقط، فإيمانك بالقلب، أمَّا مواقفك فهي بما يتخذ الناس من تشريعات، وما يَتمالؤون عليه من قِيَم، وهم – ولا شك – سيتخذون ما فيه منفعتهم الظاهرة العاجلة في الدنيا، ولو تقدم المؤمن لهم بالقول كما قال إبراهيم عليه السلام لاستنكروا ذلك منه.

والاستقرار على الباطل ليس نعيمًا كما يظن الجاهلون، بل هو من موجبات بعثة الرسل كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[330] وذلك أن الناس قبل كُلِّ نبي يكونون أُمَّةً واحدةً في الشرك والكفر، فيأتي النبيُّ فيفرقهم على أساس الإيمان، وهذا الافتراق والاختلاف هو الحق وهو المحبوب إلى الله تعالى، وهو على الضد من مراد الضالين والجاهلين الذين يريدون الناس يدًا واحدةً حتى وإن كانوا على الباطل.

فإبراهيم عليه السلام دعاهم إلى الله، وحَصل منهم الإنكار والتعذيب، فألقى إليهم حكم الله تعالى في تجمعهم وصِلاتهم وروابطهم، سواء كانت القبلية أو السياسية أو الاجتماعية ووَضَع قاعدة الهجرة إلى الله تعالى، والتي هي إعلان الكفر لا بشركهم فقط، بل الكفر بتجمعهم وروابطهم.

فالهجرة ليست كفرًا بالمعبودات النُّسُكية فقط، بل هي كُفرٌ بما توجب هذه المعبودات من روابط وصِلات وعلاقات، ولذلك قال الله بعد هذا: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[331]، هذا النبيُّ العظيم، الحكيم البليغ، خليل الله، لم يدخل في دينه مع كل هذه الحجج العلمية، وهذه الآية القاهرة بالنجاة من النار إلا لوط عليه السلام.

---

[330] البقرة : 213

[331] العنكبوت : 26

ومضى إبراهيم الخليل في الأرض، فيكون هذه فيها ذهابًا إلى الله وهجرة إليه، إذْ البقاء في ديار قومه بعد كل هذا الإعراض هو منع من لُحُوق الخيرات به؛ لأن الله علَّق كل الخيرات الدنيوية الواقعة على إبراهيم عليه السلام بسبب الهجرة كما في هذه السورة وغيرها كسورة مريم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[332]

قوله تعالى ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ فهكذا حين يكون الإقبال على الإيمان قليلًا تكون عزة الإيمان، فليس من بضائع البشر، بل هو الحق الذي أراده الله العزيز لعباده، فلمَّا لم يؤمن إلا رجل واحد كان له ذِكْرٌ باسمه تعظيمًا له، ولم يكن هذا لضعف الإيمان أو مهانته، بل من يلتحق به يحصل له شرف الانتساب إليه.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ والهجرة كما هي خروج عن بلاء البقاء بين قوم معرضين، هي كذلك امتحان وابتلاء، لكنها هجرة إلى الله، وذهاب إليه كما في سورة الصافات.

أمّا مهاجر إبراهيم عليه السلام فإنها الشام كما في الحديث الذي رواه أبو داوود عن عبدالله بن عمرو قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلا تلفظهم آضوهم، تقذرهم نفس الله، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير)) ولابن رجب تخريجٌ لهذا الحديث في فضائل الشام فانظره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ذلك بأن المهاجر ضعيف، خالٍ من قدرته، ولكنه ذاهبٌ إلى الله، والله عزيز لا ينال منه أحد من خلقه، بل هو القادر عليهم، فالذهاب إلى العزيز مع الضعف عزة، والذهاب إلى العزيز مع العجز مَنَعَة، وهو – سبحانه – حكيم يُقدر لِما أمر من الخيرات ما لا يعرفه الناس، فإن حكمته أعظم من أن يحيط بها الجاهلون ولذلك ينكرون أمره لجهلهم، وأما المؤمن فإنه يثق بكلمات الله وقدرته في أن يجري الخير والنعيم على من امتثل أمره حتى لو لم يعلم كيفية ذلك.

وهكذا لو وقع مع الخليل عليه السلام من الخير العظيم بعد الهجرة، وغرَّ جانبه حتى قال الله عنه وعن نبيه كما في سورة صاد: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾[333] فجمع الله لهم قوة العلم وقوة الجانب، وهذا أقصى الفضل وأعظمه، وهو كذلك كما سيأتي في الآية التالية من إعطائه الأجر الدنيوي من الغِنى

[332] مريم : 49

[333] ص : 45

والقوة والمهابة وحسن الصيت.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[334]، هذه هي عاقبة الإيمان والهجرة تقع على إبراهيم الخليل عليه السلام، إذْ يُبسط له في الولد، ثم نَسْل هذا الولد، إذْ إسحاق هو ابنه، ويعقوب هو ابن إسحاق – عليهم السلام –؛ ذلك بأن المرء إنما يخاف الهجرة لأمور، منها انقطاع النسب بينه وبين أهله كأمه وأبيه، فيغدو كأنه وحيد لا ضرر له، فجاء مَنّ الله تعالى على إبراهيم عليه السلام بأن صار أُمَّةً لوحده، وأُمَّة يؤتم إليها وينسب إليها، فلم يعد فرعًا لآخرين بل صار نسبًا لغيره، تعظيمًا له، وتشريفًا لمكانه، وكم من التالين من المؤمنين الذي وقع لهم هذا، حيث ساحوا في الأرض سياحة المؤمن المهاجر إلى الله، فصاروا إلى أرض هجرة أئمة ونسبًا تؤوي الفروع إليهم، إذْ لا يسأل الناس عما بعدهم، بل يكفي الأنبياء أن يقولوا نحن أبناء فلان، فيتم النسب ويحصل الفخر وتنتهي نفوس السائلين إليهم.

وهذا الذي ذكره الله هنا عن الذرية مذكور في مواطن متعددة في القرآن، وفوائد أخرى، كما هو مذكور في سورة الأنبياء في قوله تعالى عن هذه الذرية: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[335]، وقد سمّاهم الله هناك بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[336] أي: جعل الله أبناء الأنبياء نافلة، عطية منه بدون سؤال؛ لأن الخليل سأل الله بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[337]، فجاءه عليه السلام ما طلب وزيادة.

وأبناؤه إسماعيل – وهو الذبيح – وإسحاق إنما رُزق بهما على الكبر كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[338]؛ فهذه سُنّة الله مع إبراهيم الخليل، تجري من حال إلى حال، ومن موقف إلى موقف، إذْ لا يقع له الوعد إلا بعد امتحان شاق وطول زمان، فلا ييأس، ولا يتردد، بل يمضي إلى ربه ثابتًا مؤمنًا، لكن العاقبة له وللصابرين.

ولو تأمّلتَ حياة إبراهيم عليه السلام وما فيها من مواقف لعَلِمتَ معنى أن يكون المرء عبدًا لله، ولعَلِمتَ معنى أن

---

[334] العنكبوت : 27

[335] الأنبياء : 73

[336] الأنبياء : 72

[337] الصافات : 100

[338] إبراهيم : 39

يجعلك الله للناس إمامًا، فقد ابتُلي إبراهيم الخليل عليه السلام في كل موقف، حتى بعد أن رزق الولد الحبيب إسماعيل بعد طول انتظار يأمره الله تعالى بذبحه، فصدق ربنا وهو يقول عن ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[339]

فليس الابتلاء مرحلة تأتي ثم تمضي بلا عودة، بل إن البركة في أمر من الأمور لا يكون حتى يستحقه الأمر على وجه الحق وهو أن يؤدي عبادة الصبر على المحن والابتلاء، فلا تظن أنه بمجرد خروج الخليل من بين قومه قد انهالَت عليه كل العطايا وجلس فقط يعدها ويحمد الله عليها! إذْ أن ما فيها عنه إنما هو الدعاء عقب الدعاء على كل أمر يريده ويحبه لنفسه من خيري الدنيا والآخرة.

كما مَضَت حياته صبرًا على كل ابتلاء بين قومه وعند الخروج عنهم، وما حدث له مع طواغيت الأرض عندما أرادوا زوجةُ منه – كما في الحديث –، وعندما أمره الله أن يضع زوجته وابنه الوليد في أرض غير زرع، ثم أمره بذبح ابنه، وهكذا لم يبلغ الخليل مبلغ الخُلّة هذه حتى امتُحن في كل جوانب البلاء البشري، فاستحق مقام الإمامة كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[340]

ومن تأمّل قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن رأى أن لها فَرَادة الحديث عن بقية قصص الأنبياء، فإن قصة إبراهيم جامعة للحديث عن موقفه مع قومه وهذا يشترك فيها مع قصص الأنبياء الآخرين – عليهم السلام –، لكن ما يفترق عنهم أن القرآن يُسهِب في الحديث عن شخص إبراهيم وأحواله مع نفسه وأهله ودعائه، فهو أبو الأنبياء وأبو نبينا الحبيب المصطفى ﷺ، فكأن ملة الإسلام قد ابتدأت به، ولذلك يقول المستفتح ليومه: أصبحتُ على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا مُحَمَّد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين. ولهذا كانت أحواله عليه السلام كاشفة لحقيقة الشخصية القرآنية المهتدية في جوانبها الذاتية والتعبدية.

ثم يأتي في المرتبة الثانية في هذا الباب موسى عليه السلام وإن كانت أحواله مع بني إسرائيل أكثر تفصيلًا، لأن واقعه هو أقرب إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ مُقيَّد بما ذكر من أحوال الوارثين من ذريته بعد أبنائه الأقربين فقال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[341]، وبقوله تعالى في سورة النساء: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا

---

[339] الصافات : 106
[340] النحل : 123
[341] الحديد : 26

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[342]، وقوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾[343]، فدلَّ أن مجرد الانتساب لإبراهيم عليه السلام حتى لو كان على وجه النسب الأبوي لا ينفع إلا إن حمل الوارث ما حُمِّل من دين وتقوى.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يحتمل معاني، منها ما قال الله سبحانه وتعالى عنه في دعائه: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[344] فهو ممدوح على كل لسان عليه السلام، وتحتمل ما أُعطي من النعم، إذْ دلت آيات القرآن على قدرته إطعام الضيفان أفضل الطعام من مال أهله دون أن يضطر إلى الذهاب إلى بيت غيره كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[345] وهذا يدلُّ على غِناه عليه السلام، وأما قَصْر معناها على الولد فليس بحَسَن؛ لأنها تكون تأكيدًا لِما سبق والتأسيس أَوْلى من التأكيد – كما يُعلم –.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۞ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۞ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[346]

تقدم نموذجان لوقائع متعددة من الابتلاء والمحن الواقعة على الأنبياء، وفيها من العلوم التي يحتاجها العامل لدين الله تعالى مما تقدم ذكره، وحيث ذُكر لوط عليه السلام في سياق أحوال إبراهيم عليه السلام، إذْ هو المؤمن الوحيد لهذا النبي العظيم من قومه فكان أن أكرم الله هذا المؤمن الذي تفرَّد بالاستجابة أن صار رسولًا نبيًا إلى قومه، وهم قوم بُهت وسَفَالة في إتيان فعلٍ لم تأت به أمة من الأمم قبلهم، فهو من صناعتهم وتشريعاتهم الباطلة، وهو الفعل الذي قال فيه بعض العاقلين: لولا ذكره في القرآن ما صدَّقتُ أن أحدًا يفعله.

وكيف يفعله من له عقلٌ يُميِّز به بين ما هو فطري وما هو شيطاني خبيث؟!

[342] النساء : 54-55
[343] مريم : 59-60
[344] الشعراء : 84
[345] الذاريات : 26
[346] العنكبوت :28-35

لقد سرى هذا الجرم في قوم لوط، وهو ككل ظاهرة قد يبدأ بواحد يوحي له الشيطان شرًا، أو هو لخبثه يوحيه إلى أوليائه ثم استحسنه الناس بأمزجتهم وأهوائهم حتى صار دينًا يُتّبع بينهم، ومن أنكره عليهم هو المستنكر الغريب، ولذلك صرخوا في لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾[347]

ومن عجائب قولهم أن جعلوا علة الإخراج هو قولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[348] وهم بجوابهم هذا في غير هذه السورة وبجوابهم هنا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لم يحتجوا بالآباء ولا بالأجداد كسائر الأقوام، ولا تساءلوا أي تساؤل مع لوط على وجه الحِجَاج والمناظرة، بل ذهبوا مباشرة إلى قرارهم بطلب إخراج قوم لوط من القرية، أو تحدِّيه أن يأتيهم العذاب على جرمهم.

في سورة هود كان عندهم حُجة واحدة ولوط عليه السلام يعرض عليهم إتيان النساء بدل الرجال إن اشتدت غُمّتهم وأرادوا قضاء شهواتهم، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾[349]، فهم قومٌ يحترمون القوانين والدساتير التي أفرزتها ضلالات أهوائهم، فاحتكموا إليها على وجه العدل المزعوم، وقالوا على وجه تطبيق التشريعات المتفق عليها بينهم: ﴿مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾؛ فلذلك هم أهل حق وإنصاف، والحكم في ذلك ما تمالؤوا عليه، بل هم أشد إنصافًا من مُشرِّعي الشرك اليوم، إذْ لم يَحتَجُّوا عليه بأن الجهل بالقانون ليس عذرًا في تطبيقه، بل قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ وهكذا حَسَموا القضية أنه قد بُلِّغ وسيجري عليه الحكم.

سياق قصة لوط عليه السلام مع قومه هي لبيان العاقبة لِمن أعرض عن موعظة الأنبياء، وكيف يُنجِّي الله أنبياءه من بين قومهم إذا جاء أمر الله تعالى.

وها هنا قصة لوط انفردت عن بقية المواطن في القرآن في تفصيل ما ذكره الله مُجملًا في سورة هود حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[350] فالذي جادل في الخليل هو قوله هنا: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾[351] إذْ ظن الخليل أن هلاك القرية وأهلها سيلحق لوطًا وأهله، فأعْلَمتهُ الملائكة بقصدها: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾

---

[347] النمل : 56
[348] النمل : 56
[349] هود : 79
[350] هود : 74-76
[351] العنكبوت : 32

وفيها كذلك تفصيل ذِكْر معاصي قوم لوط، فإن المواطن الأخرى في القرآن تُنبؤ عن جريمة إتيان الذكران، وأمّا هنا ففيها تفاصيل أخرى، هي قطعُ السبيل وإتيان المنكر في النوادي جَهْرة. واختلف أهل العلم في معنى المنكر الذي كانوا يأتونه في ناديهم، وتنكيره في القرآن من غير بيان يجعل التحذير أشد في كل من أتى المنكرات جهرًا، ويشتد الأمر حين يتواطأ عليها قوم من الأقوام، فهاتان حالتان يَعظمُ فيهما المنكر ويُقرب عذاب الله وسخطه:

1. أمّا الأول فهو: الجهر بالمعاصي.
2. والثاني هو: التواطؤ عليها.

وفي كُلٍّ منهما جاءت أحاديث تُبيِّن عِظَم هذين الجُرمين.

وأمرٌ آخر اختصَّ به هذا الموضع من قصة لوط عليه السلام هو تحديهم له بنزول العذاب وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فإن طلبهم هذا لم يُذكر إلا هنا من كتاب الله تعالى، وهذا الطلب يكاد يكون قدرًا مشتركًا بين الجاهلين، والمرء يعجب من هذا السَّفه في أهل الإعراض، لكنها الغفلة، وطيش الشهوة وتمكُّنها من أصحابها حتى تجعلهم يستهزؤون بعذاب الله تعالى كما يصنع وُرَّاثهم اليوم من الاستهزاء بالنار وعذابها والله يقول: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ مع أن الواحد منهم لو أصابه بعض الألم في جسمه لخَارَ كما يخور الثور، ولملأ الدنيا صراخًا.

قوله تعالى: ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ جاء تفصيله في آيات آخرى وهو قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾[352] وقد سبق هذا أن جاءتهم الصَيْحة كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[353] وهذا العذاب لم يُبعد منهم أحدًا كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾[354] وقبل كل هذا لما راوده عن ضيفه من الملائكة أن طمس الله أعينهم فأعماهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[355] وامتدت عماهم من الليل حتى كان الصبح فجاءهم العذاب وقت الشروق. فهكذا توالى عليهم العذاب من العمى ثم الصيحة ثم الخسف ثم الرمي بحجارة النار؛ وذلك لعِظَم الجُرم الذي أَتَوه، وقد تقدم أن الله – جلَّ في علاه – لم يذكر في قصة لوط في القرآن أمرًا يتعلق بالشرك قد نُهوا عنه، ومن رأى هذا عَلِم أن هذه الجرائم الخُلُقية حين تَفْشو في الناس ويتجاهرون بها ويتمالؤون عليها يكون عذابها أشد من غيرها، ولذلك مما ذكر من خصوصية قصة لوط في القرآن أنها هي القصة الوحيدة التي

---

[352] هود : 82-83
[353] الحجر : 73-74
[354] القمر : 34
[355] القمر : 37

عقَّب الله عليها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[356] وهم أهل البصيرة والنظر كما أنهم أهل الفراسة كما فسرها بعض أهل العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[357] يحتمل المعنيين:

1. العبرة بالقصة وقراءتها والعلم بها.
2. والقول الآخر وهو أنها آية باقية يراها الناس ويشاهدونها، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾[358] وقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[359] فهي آية كان المخاطَبون بالقرآن عند نزولها يعرفونها ويشاهدونها.

دعوة على تذكير مضى يبين العبرة من القصة القرآنية على الوجه الصحيح، وهو أن قريش لا يعرف عنها هذه الجريمة الخُلُقية قط، لكن فيهم جرائم أخرى مذكورة في أماكنها، ومع ذلك هم مخاطبون بهذا التحذير وهذا الوعيد؛ لأن القصد هو بيان عاقبة المعاصي التي حذَّر منها الأنبياء، وهذا يقع بالتمثيل كما هو معلوم.

ثم هناك أمراً آخر يبيّن منهج الصحابة في الاستدلال، وهو أن ابن عباس رضي الله عنهما استدل على عقوبة اللواط بما فعله الله بقوم لوط عليه السلام، ومنه فرَّع بعض أهل الأصول باب الاستدلال بأفعال الله تعالى، ولذلك لما ذكر الله تعالى جريمة الربا قال سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[360] فهناك فعلٌ للرب ضدَّ المعاصي وهناك فعلٌ للمؤمنين، فلما كانت أفعال الله في عباده هي العدل كان المؤمن مأمورًا بإتيانها إلا ما اختصَّ الله به نفسه، كالتعذيب بالنار فإنه مَنْهي عنه إلا على وجه المجازاة بالمثل عند بعض أهل العلم، وهذا الحكم قديم قبل نبينا مُحَمَّد ﷺ، وقد قال به ذو القرنين لما بلغ مغرب الشمس قال الله تعالى عنه: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ۝ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[361] فكان المستحق لعذاب الله لفعل من الأفعال في الآخرة، أو جرى العذاب على أمثاله من السابقين هو مستحق للعذاب على أيدي المؤمنين بهذا العذاب؛ ولذلك قال عن الظالم: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ﴾، والتفكّر في هذا يبطل مقاصد المبتدعة

[356] الحجر: 75
[357] العنكبوت: 35
[358] الحجر: 76
[359] الصافات: 137-138
[360] البقرة: 279
[361] الكهف: 86-88

اليوم ممن يريدون للمؤمنين الاقتصار على التذكير والكلمة دون مجازاة المؤمن بإيمانه والظالم بظلمه فإنه إن وقع هذا عَمَّ الفساد في الأرض وهو سبب غضب الله وعذابه على القرى جميعًا كما قال ﷺ: ((إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشكَ أن يعمهم الله بعقاب منه))، وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[362]

لقد عانى لوط عليه السلام مع قومه في نهيهم عن هذه الجريمة حتى كان منه أن دعى الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهذا مما اختص هذا الموطن من القرآن بذكره عن لوط، إذْ لم يذكر عنه أنه دعى على قومه إلا هنا. وكان له محنة أخرى هي محنته مع زوجته التي خانته كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[363] وهذه في سورة التحريم التي فيها تهديد الله لنساء النبي ﷺ بوجوب طاعته وإلا كان الطلاق كما قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ﴾[364] وهذه تضاف إلى مِحْنة المؤمن، فإن إعراض أهل الداعي عن دعوته ودخولهم في مسالك المجرمين يَشقُّ عليه ويُتْعبه، والواجب التذكير أن خيانة امرأة نوح ولوط كان في معصيتهما فيما يدعوان إليه، لا في الزنا، فإنه ما بَغت امرأة نبي قط كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

وفي هذا الموطن من قصة لوط تعدد وصف فاحشتهم المنكرة فهم:

1. مفسدون، كما قال تعالى على لسان لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾
2. ظالمون، كما قالت الملائكة للخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾
3. فاسقون، كما قالت الملائكة للوط عليه السلام: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

وجريمتهم هذه تحوي هذه الصفات السيئة فكانت لائقة بهم.

وفي سورٍ أخرى ذَكَر لهم أوصاف أخرى، ففي الأعراف ذكر لهم وصفان قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[365]، وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[366]، وفي سورة النمل قال الله عنهم على لسان لوط عليه السلام: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[367] ولا أعلم في القرآن قومًا بَلَغت أوصافهم هذا المبلَغ؛ وذلك لعظيم هذا

[362] هود : 117
[363] التحريم : 10
[364] التحريم : 5
[365] الأعراف : 81
[366] الأعراف : 84
[367] النمل : 55

الفعل وقُبْحه عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾ إنما وَقَع بعد جداله عليه السلام مع قومه لما جاؤوا يطلبون الضيفان كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[368] وكان النبي ﷺ يقول: ((نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم إذْ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[369] ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن طول ما لبثَ يوسف لأجبتُ الداعي)).

ولوط عليه السلام إنما قال ما قال لغضبه الشديد على قومه فذُهل عما فيه، وهكذا المؤمن العامل لدين الله تعالى يكون نصر الله بحذائه ويتبعه، لكن شدة المحن والمعوقات قد تذهله عن ذلك، فهو محتاج إلى التذكير والاتعاظ واصطحاب الصالحين الذين يُذكرونه بعاقبة الصابرين، كما عليه مداومة قراءة القرآن فإنها أعظم المدد في ذلك، والناس إنما يسقطون حين يسقطون لفراغ قلوبهم من رؤية الله أنها معهم وأن نصر الله آت، لكن حكمة الله تعالى لها قدرها وميعادها، وها هي تأتي للوط عليه السلام عندما يبلغ الأمر منتهاه وقمَّته، وتبلغ وقاحة القوم مبلغها فتنقطع أعذارهم عند أنفسهم وعند غيرهم، ولو تأملنا حال إبراهيم عليه السلام مع الملائكة وهو يجادلهم في قوم لوط، والله يصفها في هذا الموقف بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ فصفَتُه الحلم عليه السلام، وقارنّاها مع حال لوط الذي يستعجل لهم العذاب كما ترد عليه الملائكة بعد أن قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾[370] فكأن لوط استبطأ الصبح ورآهُ بعيدًا فقالوا له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[371] لرأينا الفارق بين من يرى المعاصي ويشهد قبح وسفالة العُصاة وبين من يسمع بها من بعد، ولذلك قال المصطفى ﷺ: ((ليس السامع كالمعاين))؛ وقصة موسى عليه السلام في إلقاء الألواح تشهد لهذا، فإن الله أخبره عن صنيع قومه من اتخاذ العجل، لكنه لما رأى جرمهم ألقى الألواح لشدة غضبه، فمُشاهِد الفعل ليس كسامعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[372] آية عظيمة، إذْ ظن لوط عليه السلام أن

[368] هود : 78-81
[369] البقرة : 260
[370] هود : 81
[371] هود : 81
[372] هود : 77

هؤلاء القوم بلاء عليه، وسيكون وجودهم سببُ مشقة كما قال هو: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[373] لكن هذا البلاء المظنون كان هو النجاة، وهكذا يخرج النصر من البلاء، وتكون النجاة من رَحِم المعاناة، فما يظنّه الناس شرًا يكون خيرًا كما قال تعالى عن حادثة الإفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[374]، وقال عن القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[375]؛ وكم من أمرٍ ظاهره المصيبة ثم لما انقشع على خاتمته رأى فيه أهله أنه الخير لهم، ومَنْ تأمّل قصة يوسف عليه السلام رأى هذا جليًا، فقد بكى يعقوب ابنه حتى عَمِي، ثم لما كانت الخاتمة كان ما شكى منه هو سبب الرحمة والرفقة والملك.

النصر مع أهل الحق محيط بهم في كل لحظة، ومَعيّة الله معهم، فلا يعني أن أصوات الباطل حين ترتفع أن قُضي الأمر لها، أو أن الله تخلّى عن عبيده، بل هي فترة تجري فيها حكمة الله لأمرٍ يريده، يمتحن فيها المؤمن، وتثبت الحجة على الكافر، وتتعطش النفوس ظمأى إلى النصر، حتى إذا جاء سجد المؤمنون شكرًا، وابتلّت النفوس التي جفَّت لهول المعاناة والمحنة، فرفعوا رؤوسهم إلى السماء شاكرين حامدين، ونسبوا الفضل كله لله: "وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْده." فجلَّت حكمة الله تعالى أن يبلغ كُنْهها عبيده الضعفاء المساكين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ ذلك بما أمروه به وهو أن يخرج مع أهله في الليل تاركًا القرية وراءه، وأمروه أن لا يلتفت وراءه كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[376] فكان نجاته بالخروج إلى حيث أُمِر: ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[377]

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[378]؛ هذا تطمينٌ آخر للصابرين على أمر الله تعالى أمام عُتُو وإعراض أقوامهم عن الحق، وأن مَردّ هؤلاء العُتاة إلى دمار، فقوم مدْيَن هم أصحاب الأيكة كذلك؛ فلذلك هم أصحاب زرع وشجر وثمار، وإن من جرائمهم التطفيف في الموازين كما قال لهم نبيّهم شعيب: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾[379]، وقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾[380] ومن جرائم الإفساد في الأرض، وهو قطع الطريق لقوتهم وكثرتهم كما قال تعالى عن لسان شعيب: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾[381]

[373] هود : 77
[374] النور : 11
[375] البقرة : 216
[376] هود : 81
[377] الحجر : 65
[378] العنكبوت : 36-37
[379] هود : 84
[380] هود : 85
[381] الأعراف : 86

قوله تعالى: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ فيه بيان ما تقدم التنبيه عليه مرارًا أن مرجع القيم في دعوة الأنبياء ليس إلا إلى أمرين وهما هنا في هذه الآية: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ ومن غير هذين الأمرين لا يكون الفعل صالحًا البتّة ولو اتّقى في الشكل والظاهر.

والحقُّ أن القيم مهما بلغ جمالها في عقول الناس إلا أن ثباتها عند الامتحان، وآثارها على النفس والوجود لا تكون إلا بما يستقر في نفس العامل أن فعله لها هو عبودية لله، وأن عاقبة المخالفة هي الأشد يوم القيامة، وبهذه المرجعية والمعيارية للقيم والحقوق والواجبات تكون آثار وثبات هذه القيم. وللدخول في الشخصية النبوية، وهي الشخصية المهتَدِية التي يريدها الله لعبيده، وكذلك هي الشخصية التي يتحقق لها الوعود الإلهية لا بُدّ من لزوم غِرْزها في الهداية والدعوة والإصلاح، ولا يكون هذا إلا بمعرفة تفاصيلها القرآنية، وهي تفاصيل مُستوعِبَة لأحوال الدعاة والعاملين وأقوالهم ومواقفهم، لا كما يظن البعض أنها عمومات فقط.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ تنوّع ذكر العذاب عليهم في القرآن، فها هنا ذَكَر الرجفة أي: الزلزال، وفي سورة الشعراء ذَكَر عذاب يوم الظُّلّة كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[382]، وفي سورة هود ذَكَر الله الصيحة كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ﴾[383] وهي مذكورة في الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾[384] وذلك أن سلّط الله عليهم الحر الشديد فأنشأ الله لهم سحابة فاستظلوا بها فصارت نارًا عليهم فهذا يوم الظُّلّة، ثم جاءتهم صيحة عظيمة فجّرت قلوبهم، ثم جاءهم العذاب بالخسف والزلزال، ولما حصل هذا من تجمُّعِهم تحت السحابة وتوالي العذاب صار بعضهم فوق بعض كما قال تعالى: ﴿جَاثِمِينَ﴾ أي: تجثُم جثثهم فوق بعضها البعض.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[385]؛ وقصص هذين القومين مع أنبيائهم مذكورة في كتاب الله تعالى، فعاد نبيُّهم هود عليه السلام، وثمود نبيهم صالح عليه السلام، وقد عَلِمت العرب مساكنهم، فكان ذكرهم داخلًا في أمرين، أولاهما الاعتبار بحالهم، بكفرهم ومعصيتهم الرسل، وبأن ما أمر الله المعتبرين في السَيْر في الأرض للنظر في العواقب إنما لبقاء شواهد هؤلاء الأقوام، فهذا قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ فإن ذهابهم وبقاء المساكِن من بعدهم لم تُسكَن دلَّ على سُنّة

[382] الشعراء : 189
[383] هود : 67
[384] الحجر : 83
[385] العنكبوت : 38

الله مع المعرضين عن دعوة الأنبياء.

والناس اليوم يذهبون في البحث في الرُّقُم والرسوم القديمة كل مذهب إلا مذهب الحق في الاعتبار أن بقاء الأُمم إنما بقيمها، وأن الأمم تزول لفساد قيمها، وهذا الجانب المهم في النظر إلى الآثار لا يشغل الباحثين اليوم، بل هم مشغولون بالظواهر عن حكمة بقائها ووجودها؛ وكل ذلك من جهل الإنسان وعدم اعتباره، ثم يأتي من يزعم أن هذا هو العلم وأن موعظة الأنبياء بهذه الديار هي مواعظ خُلُقية دينية ولا يحق لها الانتساب للعلم، مع أن هذا الغرور بانتهاء التاريخ وتوقُّف الهلاك وإبادة الأُمم وحضاراتها هو داء الأمم قديمًا، فما من أمة إلا وظنت أنها باقيةٌ دائمة، وأن وجودها هو نهاية التاريخ، فهذه سبل الشيطان التي سلكها مع الأوائل هي عينها التي يسلكها مع الناس اليوم، ثم هم يزعمون أنهم أهل فِكْر ونظَر، وأهل تقدم علمي لم يبلغ شأوه الأقدمون، والذي غرَّهم ما بسط الله لهم من بعض معارف سُنَن الوجود، فبدل شكر الله ذهبوا في تفسير هذا الاكتشاف أنه صناعةٌ لهم، وكأنهم هم من خَلَق هذه السُنَن، فالغرور فيهم كالغرور في آبائهم ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[386]، فهكذا كل أُمَّةٍ تَزعمُ أن لها خصوصية الوجود مما يصرفها عن الخوف من العاقبة، وهذا بخلاف المهتدين، فإن الفاروق عُمَر رضي الله عنه لما رأى النِعم تنهال عليه خاف وبكى، وهذا من فقه المهتدين، فإن الله يقول: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[387]

ومن علامات ضلال أولئك الذين لا ينظرون إلى العاقبة السريعة في الأقوام أنهم أبعَدُ الناس عن الإيمان بالآخرة؛ ذلك لأن الناظر إلى هلاك الأمم وتبدُّلها، ووراثة كل قوم لقوم آخرين ليعلم أن اليوم الآخر آت، إذْ أن سُنّة الله في الجزء هي سُنّته في الكل.

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾[388] هذه حقيقةٌ قرآنية في تسمية كل أفكار البشر وتشريعاتهم وأعمالهم مهما تزيَّت بزي العقلانية والتقدم والتفكير الإنساني العميق، فكلها تزيينٌ شيطاني، وهي سُبُل الغواية، يقابلها سبيل واحد هو سبيل الحق الذي جاء به الأنبياء. هم يُضْفون عليها ألقاب الاحترام والمهابة، ويقيمون لها شعائر التعظيم، وما هي إلا خبائث مستقذرة يَعرف حقائقها المهتدون بالقرآن، وهؤلاء المهتدون على مراتب، أعلاهم من يعرف تفاصيلها ومما يقابلها من حق في القرآن، وأدناهم من جهلها وهو كافر بها جملةً وجَهِل ما

[386] هود : 109
[387] الأنعام : 44
[388] النمل : 24

يقابلها في القرآن مع إيمانه الفطري العام، وهذا أدنى الإيمان، ولكن هؤلاء أعمق إيمانًا وأقل تكلفًا ممن يؤمن بالقرآن جملة ولا يعرف هدايته التفصيلية ولكنه يؤمن ببعض ضلالات القوم ظانًا أنها حق وصواب، وهؤلاء مخانيث الفكر قديمًا وحديثًا، وفي زماننا هم الأكفر والأعلى صوتًا في الصف الإسلامي.

هداية القرآن الكريم تذهب إلى الحقيقة بلا تزوير، فما يسمونه – كذبًا – فِكرًا إنسانيًا، أو سلوكًا حضاريًا، يسميه القرآن إيحاءً شيطانيًا: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾[389] نعم، هو مزخرف ككل البضاعات التي يريدها الشيطان من الإنسان وهي باطلة، لكنها باطلة، وأمّا سلوكهم الحضاري فهو رجس وخبث وتزيينُ شيطان، بل هي أدنى من البهيمية كما قال القرآن عنهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾

وهداية القرآن تجعل مصادر هذه الأفكار وهذه الأعمال إنما هي الشهوة دون البصيرة والهداية، وهم يأنفون هذا التصريح الحق، بل يُطالبون أن يعامَلوا معاملة الفكر بالفكر حتى لو قلبوا أعظم الحقائق وجودًا كما يفعل اليوم جند الشيطان من تشريع إتيان الذكران وحلّ الربا وإباحة الزنا وغيرها من شرائع الشيطان القبيحة، ثم يقال بين الناس هذه آراء وعلى المخالف أن يناقشها حين يخالفها لكن يجب أن يحترمها؛ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[390]

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾؛ هذه حقيقةٌ قرآنيةٌ فريدة، وهي مبثوثة في كتاب الله في كشف نفوس المعارضين للحق، ووالله لو لم يختص أهل الإسلام إلا بهذا اليقين عما في نفوس خصومهم لكان في ذلك كفاية لهم، لكن أين قومي من هذا؟ هداية القرآن تكشف أن القوم يعلمون الحق في نفوسهم، وهم على بصيرة منه كما أن أهل الحق على بصيرة منه، ولكن إعراضهم عنه إنما لأسباب الهوى كما هو مذهب إمامهم الشيطان: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[391]؛ فهو إعراض العالِم بالحق لكنه يكرهه لخبثِ نفسه وسوء طَويّته وغلَبَة شيطانه عليه.

تأمّل تلك القصص التي تملأ زمانك اليوم وأنت ترى رجلًا يزعم أنه قد أتى بحقائق الوجود من قَرْنَيها ثم لما يخلو مع خلانه بان على حقيقةٍ لا خفاء فيها أنه أقذر الناس وأسفلهم سلوكًا ولفظًا، واسمع تلك القصص التي تملأ زمانك حين تأتيه امرأة لتسأله عن فِكْره وتستبين منه بعض معالِمه فلا يكون همه إلا أن ينال منها شهوته. ولذلك

[389] الأنعام : 112
[390] الأنبياء : 67
[391] البقرة : 34

فبيئات هؤلاء القوم في سلوكها هي أحد وأقذر البيئات في جوفها وأسرارها، لكنهم فقط يتزيَّنون للحظات أمام الجهلة المساكين ممن يصدق أن القوم أهل فِكْرٍ وبحثٍ ونَظَر.

حقائق هؤلاء القوم أنهم وحوش مسعورة لا تراعي خلقًا ولا هداية ولا حقائق، فحيث بانت لهم مصلحة في قضاء وَطْر أو مصلحة منصب أو مال ركضوا إليه عرايا بلا رتوش أو سواتر، يعرف ذلك منهم أصحاب الأموال والمناصب؛ ولذلك هم يعلفونهم كما تعلف الدواب، ويشترون كلماتهم كما تُشترى المومِسات، فتلك تبيع عرضها وهذا يبيع كلمته.

هذه الحقيقة ليست قاصرة على قومٍ دون قوم من زاعمي الفكر الإنساني، أو أولئك الذين يزعمون نُصرة الإنسانية من أجل تحررها وتنويرها، بل هي عامّة عموم كلمة كل في لغة العرب، والشقاء إنما يقع على المساكين الجهلة من الأتباع، وأشد منهم جُرمًا وغباءً هم من كان في الصف الإسلامي ويتعامل معهم تعامل الفكر المحترم الذي يدور مجال البحث فيه والنظر إليه بعلم واحترام.

إنهم يكرهون الحق وفقط، ولو أتَيتَهم من كلِّ حكمٍ شرعي لرأيتَ الكراهية فقط، فإن جئتهم من حكم الله في حرمة الزنا صرخ أهل العهر والدياثة: "أين الحريّة الإنسانية؟" وإن جئتهم من حرمة الربا صرخَ اللصوص والسُرّاق: "أين الحريّة الاقتصادية؟" وهكذا لا تجد إلا كراهيةً للحق فقط، وشعاراتٍ جاهليةٍ يُطلقها زاعمو الفِكر والفلسفة والنظر، ويتبعهم القطيع.

القرآن يقرر إنهم يعرفون الحق، كما قال تعالى على لسان موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[392]، وكما قال الله عن أهل الكتاب معرفتهم بصدق الرسول: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[393]، وكما قال الله مُطَمْئِنًا رسوله أن إنكارهم هو إنكار جحود لا جهل: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[394]

وحين يعلم المسلم هذه الحقيقة القرآنية فإنه لا يقع فيما يقع فيه أهل الجهل اليوم من دعوى أن كراهية الكافرين للإسلام بسبب المسلمين وأخطائهم وأعمالهم الشرعية التي فيها النكاية فيهم والتي توجب غضبهم، بل الأمر كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾[395] فاقطع الرجاء منهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا يقع في ما وقع فيه فقهاء الجهل من كتمان الحق الذي تكرهه نفوس أهل الباطل تحسينًا للحق بزعمهم، ولا يقع فيما وقع فيه المهزومون من براءتهم من المؤمنين المجاهدين تنظيفًا للإسلام – زعموا – أمام

---

[392] الإسراء : 102

[393] البقرة : 146

[394] الأنعام : 33

[395] البقرة : 120

الآخرين من محبي الخير والسلام من غير المسلمين. إن الجهل بهذه الحقيقة القرآنية له نتائج شر على الإسلام والمسلمين ولو عدَّها المرء بما يرى من الوقائع لكانت كتابًا لوحدها، فنعوذ بالله من الخذلان.

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ هي الحقيقة الربانية، وهي شعار المؤمنين في الحكم على مخالفي دعوة الرسول ﷺ فهم أتباع الشيطان؛ وما انساقوا وراءه إلا لأنه أتاهم من باب الشهوة، وهو باب زينة وتستجيب لها نفوس البهائم، وكان سبيل الله جليًا واضحًا في نفوسهم، ومثل هذا الواقع لا يكون البحث مع أصحابه من جهة الفكر والنظر بل له باب آخر هو باب التأديب والعذاب.

نعم، اصرخوا ما شئتم، ولبِّسوا على الجهلة كما تحبون، وليستجب لكم المبتدعة من المسلمين في دعواكم أن البحث يدور حول أفكار ورؤى، لكن الحقيقة أن ما يلزمكم هو العذاب، وهو العلاج القرآني والنبوي، ومَنْ أخطأه فإنّه هو الملوم، أما وضوحه في كتاب الله وفي سُنّة الرسول ﷺ فهو بَيّنٌ لمن أراده، ومن حاول تزيين الإسلام على حساب حقائقه، وعلى حساب المظلومين من عباد الله المؤمنين، وعلى حساب العاملين لدين الله فإنه لن يُرضي الكافرين وسيغضب عليه رب العالمين وعباده الصالحين، فليَرَ المرء أي القِسمتين يحب فإن الطريق مُمهَّد والسبيل مُبيَّن.

قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[396]

وهؤلاء أقوامٌ وأشخاصٌ مضى أمرهم على وجه القوة والغِنى والملك والوزارة، فاعتصموا بها ظانين أنها تمنعُ المرء في حياته، وتُغنيه عن الله والخضوع لأمره، فجَرَت حياتهم على معنى الطغيان والتكبر وردّ الحق الذي أتى به الأنبياء فجاءهم العذاب كما جاء للأمم السابقة، ولم يحصل لهم شيء من السبق والفرار من عذاب الله ﷻ.

ومقدمة السورة كان فيها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وها هنا يقول ﷻ في التمثيل لهذه الحقيقة القرآنية الكونية: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ إذْ لم تصنع لهم قوتهم ولا ملكهم ولا أموالهم ولا جنودًا قوة النجاة من عذاب الله ﷻ.

وهذه الشخصيات الضالة الكافرة تنوع كفرها وإعراضها عن أمر الله تعالى، فقارون رجلٌ من بني إسرائيل كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾[397] فمثالُه هو مثال الغني المستكبر الذي لا يرى

[396] العنكبوت: 39-40

[397] القَصَص: 76

نعمة الله عليه بل هو يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[398]، وهي دعوى الجاهلين ممن يظنون أن جريان السُنَن في الأرض لا يكون بإرادة الله في كل واحدة من أفرادها، وعالم الشهادة بما فيه من سُنن هي حجاب لمن لم يهتدي بنور القرآن وكلمات الله تعالى، فإن عالم الأسباب الذي أجراه الله بين الناس وأقام شواهده بينهم يحجب رؤية يد الله تعالى في جريان هذه السنن واضطرادها.

ولذلك قال رسولنا ﷺ في صبيحة يومٍ بالحديبيّة وقد صلى بهم على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي، كافرٌ بالكواكب، وأمّا من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكواكب.

هذا مع أن النوء ليس سببًا شرعيًا ولا قدريًا للمطر، ولكن يفيد الحديث أن المؤمن هو من ينسب الفضل لصاحبه وهو الله فيحمده، وهو منزل المطر، ومهما أرجع الناس المطر إلى أسباب كونية فإن السؤال النبوي ما يزال قائمًا: ((فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟)) أي: من صاحب الفضل الأول بأن يكون كذا ليكون كذا؟ إنه الله، فله الحمدُ في الأولى والآخرة – سبحانه –.

ولكن الناس – لجهلهم – تحجبهم الظواهر فيعلقون عليها الحوادث، كما أنهم ينسون كما في حديث الأقرع والأبرص والأعمى، فإن الله لما شفاهم وجمّلهم وأعطاهم سؤلهم من النعيم فلم يشكر منهم إلا الأعمى وكفر الأبرص والأقرع، فرضي الله عن الأعمى وسخط على صاحبيه، فهذه من الفتن على الإنسان ولا ينجو منها إلا أهل الإيمان والشكر، والناس يظنون – لجهلهم – أن المفتونين من هؤلاء كقارون والأبرص والأقرع وصاحب الجنة المذكور في سورة الكهف ومن يقابلهم من الشاكرين على النعم كإبراهيم وداوود وسليمان والأعمى إنما أتاهم النعيم على غير وجه السنن الجارية في الأرض، وهذا وإن وقع بعضه لدوواد عليه السلام لكن المُلْك قد أُعْطِيه بعد أن قَتَل جالوت كما في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾[399]

وقد وقع لسليمان خوارق خاصة به لدعائه عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[400] فصار إلى ما صار إليه من حُكم الجن والشياطين والطيور كما ذكر في سورة النمل وصاد، ولكن لا تكون النعم للباقين إلا على وجه السُنَن، فالكافر يعلق حصول هذه النعم على قوته وعلمه، ولو صحَّ قوله هذا، وهو غير صحيح؛ لأن هناك غيره أكثر منه قوة وأبلغ منه علمًا لم يصل إلى ما وصل إليه، إنما هو

[398] القَصَصْ : 78

[399] البقرة : 251

[400] ص : 35

التوفيق الإلهي، لكن لو صحّ قوله هذا فإنه لو سأل نفسه من الذي خصه بهذا العلم وهذه القوة لعَلِم أن رحمة الله قد بَلّغته فوجب الحمد والشكر له ﷻ، لكنه كِبْر الإنسان وغروره يُنسيانِه ذلك.

وكُفر قارون إنما هو كُفر النعم، وواقع هذا الكفر يكون بما وصف الله من حاله في سورة القَصَصْ حين قال له قال الله عنه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[401]

فهذه مقوّمات هذا الكفر:

1. البغي والظلم، وهذا له مراتب أدناها أن يفتخر عليهم بالقول وتصعير الخد والنظر إليهم على وجه الاستعلاء، ثم يكون فوقها من البغي والظلم الشيء الكثير.
2. الفرح، وهو ما نهى لقمان عنه ابنه بقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[402] فهو فرحُ الغرور والكِبْر والبَطر، به ينسى شكر المنعم وأداء حقوق الله وحقوق العباد، وهذا الفرح الذي يأتي في الأمم على هذا الوجه من الضلال هو سبب هلاكهم كما قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[403]؛ فمظاهر المجون وفرح الفساق وأهل المعاصي من أهل الغناء والرقص والطرب هي مظاهر وسقوط الأمم ونزول عذاب الله، وهي التي عند بعضهم مظاهر التمدن والحضارة والتقدم، والحق أن من نظر إلى سقوط الحضارات وذهاب قوة الأُمم رأى أن هذا مَعْلَم مُشترك عند بداية انهيار هذه الحضارات.
3. والفرح المنهي عنه، ما كان بغير الحق أو ما كان منهج حياة يفسد المجتمعات؛ ولذلك قيّد الله الفرح المفسد في سورة غافر بقوله عن أهل الشرك: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[404] فقيّد الله الفرح الباطل بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

[401] القَصَصْ : 76-78
[402] لقمان : 18
[403] التوبة : 69
[404] غافر : 75-76

4. منع أداء حقوق الله وحقوق العباد في نِعَم الله المالية، وهذا بابٌ واسعٌ فيه الكثير من المسائل، وهو الظلم الذي حرّمه الله تعالى وجعله سبب العذاب والهلاك في الدنيا والآخرة.
5. الفساد ووجود المال بين يديّ أهل المعاصي والإعراض هو سبب فسادهم وإفساد الآخرين ممن يلوذون بهم.
6. إنكار فضل المنعِم، ويؤدي هذا إلى كفر النعم وعدم أداء شكرها، والضرر ببقائها وعدم ذهابها.

فهذه مقوّمات هذا الكفر الذي تحدث عنه القرآن كثيرًا، وهو الذي يغرز العقود المحرَّفة كالربا وأكل مال الناس ودعم الخنا والفجور، ويؤدي لمنع الزكاة، ومع عظيم هذا الجُرْم إلا أن الناس في غفلة عنه، ويسكت البعض عن هذه الجرائم خاصة لما تقع من الحكام والطواغيت وأعوانهم، ولا يظنون أنه إن لم يؤخذ على أيديهم فإن العذاب سيحل بهم جميعًا، وهذا الفساد عظيم الخطر والذنب لو جاء مع الإسلام، فكيف إذا كان مرافقًا لطغيان فرعون الذي قاله لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[405] وهو تألّهُه الذي وصفه الله في كتابه بقوه لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[406] فحينئذ يكون الجُرْم كبيرًا والأثر أخطر وأعظم، فيالله كم جهالات أُمّتي في السكوت عن المفاسد التي تلحق الأُمَم فتؤدي لهلاكها، وهم يصرخون ليل نهار على مسائل فيها السعة من الخلاف والاجتهاد.

فهذا قارون اليوم موجودٌ في أُمَّة الإسلام، وقد الْتَحم حقيقة واحدة مع فرعون، يفسد بماله دين الناس، وينشر بينهم الرذيلة والفرح الباطل والمرح الفاسق، وهو مع كل إفساده تسكت عنه جموع العلماء، بل إن بعضهم يأكل على مائدته، ويمدح له دينه الكاذب حين يُلقي له ولأمثاله بعض الفُتات ليسكتهم ويشتري منهم دينهم، ويظن هؤلاء أنهم بموافقتهم لهم ثم بالخروج على الناس ببعض المواعظ العامة قد أدّوا حق الله، ونصروا دين الله، فعمَّ الفساد وذهبت هيبة المواعظ؛ لأن الناس يعلمون حقائق هذه الكلمات التي تخرج على هذا الوجه من هؤلاء القوم.

لقد كانت أعظم الحروب التي خاضها أصحاب رسول الله ﷺ بعد وفاته تتعلق بحق المال وهو الزكاة، وقُتل فيها قراء الصحابة، وكانت أشد الحروب في تاريخهم يومذاك، وأمة الإسلام تعلم ذلك، ثم يظن البعض أنه بمجرد انشغال المتدينين بشأنهم دون الضرب على أيدي هؤلاء الجامعين لدين قارون ودين فرعون يحقق لهم العبودية الصحيحة؛ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بل إن الكثير من الوعاظ لا يمنعون الناس من جهاد هؤلاء بل يمنعون بعضهم وكراهيتهم، ويوجبون على الناس حبهم والدعاء لهم، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

[405] غافر : 29

[406] القَصَصْ : 38

أمّا كُفر فرعون فقد تقدَّم ذِكره، وأما كفر هامان فهو كفر المعِين على الكفر برأيه وتنفيذ إرادته، فهامان وزير فرعون وهو سيد الملأ عنده، يأمره فرعون فيمضي لأمره كما قال تعالى عن ذلك في موضعين من كتابه في سورة القصص وسورة غافر، فقال ﷻ في القَصَصْ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[407]، وفي سورة غافر قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[408]؛ فهذا شأن هامان وزير شرٍ لطاغيةٍ مُتَألِّه يُعبدون دون الله تعالى، فمضى حكمه في الأرض كحكم الطاغية، وهو من أتباعه يوم القيامة: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۝ وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾[409]

فالآيتان في شأن هامان تظهران أنه ليس له من الأمر شيء، بل هو يؤمر فيطيع، ويُرسَل لشأن فيذهب إليه بلا منازعة، ولم يكن هذا الحال من الاستحمار له حجة في صرف حكم الله وعذابه عليه كما يفتي أهل الجهالة اليوم.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذه الخصلة الجامعة لهم، وهي السير على منوال إمامهم إبليس كما قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾[410]، وقوله تعالى عنه: ﴿وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[411] والاستكبار من إبليس لم يكن رفضًا لعظمة الله وقدرته وربوبيته، بل كان استكبارًا عن السجود لآدم احتقارًا لشأن هذا المخلوق، واستكبار فرعون وقومه كان احتقارًا لشأن موسى وقومه كما قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمهمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[412]، وكان استكبار قريش عن متابعة رجل لم يكن بقُوى غيره من الرجال في المال والشرف كما قال الله عنهم في الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[413] وهذا – لِمن عَلِمه – ردٌ على من أعذر المشركين في أي زمن في إعراضهم عن دين الله، كمن يعذر المشركين اليوم بشركهم وقتلهم المؤمنين وكراهيتهم الإسلام بسبب ضعف المسلمين أو تخلفهم في الصناعات، وأكثر من هؤلاء انحرافًا هو من جعل جهاد أهل الإسلام ضد الطغاة والمفسدين في الأرض عذرًا للكفر والشرك وكراهية الإسلام.

أمّا الزنادقة المجرمون في هذا الباب فهم الذين يعذرون المشركين في كراهيتهم للإسلام بسبب الأعمال النُسُكية والتعبدية كحجاب المرأة أو اللحية أو الأذان وما كان في هذا المعنى، وهذه الأصناف كثيرة تملأ زمان الجهل

---

[407] القَصَصْ : 38
[408] غافر : 36-37
[409] هود : 98-99
[410] البقرة : 34
[411] البقرة : 34
[412] المؤمنون : 47
[413] الزخرف : 31

والضلالة.

قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ وهذا تمييزٌ عن العذاب الذي يقع جملة في الناس إن خَلَت الأرض من المصحلين كما قالت عائشة – رضي الله عنها –: أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال ﷺ: نعم إذا كثر الخبث.
وكثرته تدل على سكوت المصلحين وإلا فإن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[414] والمصلحون ليس المقصود بهم من يُنكر بلسانه أو بقلبه، بل إن الصلاح لا يقع إلا بالأخذ على أيدي الظلمة – كما في الحديث وقد تَقَدَّم –، فإن وقع العذاب وفي القوم صالحون فإن الصالحين يُبعثون على نياتهم كما في حديث الجيش الذي يغزو الكعبة آخر الزمان. والقصد، فإن هؤلاء المجرمين قد عُذبوا بذنوبهم، وكل له ذنبه الذي تقدَّم ذِكْره.

والآيات الكونية في العذاب بلا إهلاك كُلي للأُمم لم تتوقف، فكم وقع خسف وزلزال ذهب فيه أقوام ومثله الإغراق والبراكين، أو الحر الشديد أو البرد الشديد أو الريح العظيمة، لكن قد قلَّ الاعتبار فيها، ولم يعد أهل العلم يُنبّهون إلى حكمة الله فيها، بل استجاب الكثير منهم للزنادقة في استهزائهم بالتفسير القرآني لهذه الآيات، وأنها آيات تقع على العصاة والمعرضين، وأنها تقع آيات على قدرة الله واستسلام العتاة والمجرمين أمامها، كما أن كثرتها ككثرة الزلازل والفتن من علامات يوم القيامة، والزنادقة إنما يردّون حكمة هذه الآيات بزعمهم أنها لا تصيب كل عاصٍ، فإنها تقع على أقوام دون أقوام، أو أنها تقع آثارها الأعظم على الفقراء دون غيرهم! وكل هذا من تلبيس سيّدهم الشيطان عليهم وعلى الناس، فأما وقوعها على قوم دون قوم فهذا شأن الآيات وتعدد وقائعها، فالناس قد ينتبهون إلى آية الزلزال العظيم لكن لا يرون آية تسليط الظالم على المعرضين كما سلَّط الله فرعون على بني إسرائيل لظلمهم، وقد يرون آية البركان في مكان وهي تحصد المئات لكن لا يرون آية البركان على أهل الأموال وهي تؤلمهم في أموالهم، فالآيات تتعدد في الناس بحسب سنة الله في العقاب الملائم للأقوام، وأما أن آثارها على الفقراء دون الأغنياء فهو من جهالات الناس وقلة قراءتهم لهذه الآيات؛ ذلك لأن الفقراء هم الأكثر وأهل الثراء هم الأقل فقد تُحصي مئة قتيل فقير في مكان مع قارون واحد أو اثنين بينهم، والعذاب في الحصب أو الإغراق أو الخسف يصيب هؤلاء وهؤلاء لكن يمضي خبر قارون سريعًا وتبقى الآثار على الأكثر الباقين.

فقراءة الآيات الكونيّة يحتاج إلى علمٍ خاص، لا أن يتصدّى له الجهلة الذي لا يُتقنون إلا العمومات فإن جاؤوا لتفسير الأحداث على وجهٍ إيماني خَلطوا وجَهلوا وأتَوا بالعجائب التي تُضحك الثكلى.

---

[414] هود : 117

وإنه من غرائب زاعمي الفكر والنظر في زماننا أنهم يسكتون ويخجلون عن ذكر هذه الآيات وارتباطها بالمعاصي والذنوب ثم هم يُعلقون على أعمال الجهاد ما يقع للناس من بلاء إيماني كالسجن والشهادة والهجرة الإبراهيمية، وبذلك يتخذون هذا التفسير سبيلًا لإبطال هذه الأعمال الإيمانية، ولو حضر هؤلاء ما وقع لأهل الأخدود من تحريق بسبب استجابتهم لدعوة الغلام لسبُّوا عليه واتهموه بما يتهمون أهل الجهاد اليوم.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لا يدلُّ على انحصار العذاب الإلهي بهذه الأمور، بل دلّ القرآن الكريم على غير ذلك من العذاب كالذي أرسله الله على قوم فرعون كما قال ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾[415] وهذه الآيات الكونية المهلكة هي الأعظم التي يراها الناس، ومنها ما يلازم الحياة دون إهلاك كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾ فما يسلطه الله على العصاة من أمراض وضنك يكون على معنى معاصيهم، إذْ العذاب يكون ملائمًا للمعصية، ومنها أمراض الأنفس والأبدان، وانتشار العداوات والخصومات، وذهاب المعاني القيمية بين الناس كمعاني الأبوة والأمومة والأخوة والصداقة، وتحول البشر إلى بهائم وكلاب مسعورة، مع قلة الأمان والاطمئنان، كل هذه آيات كونية مرتبة على المعاصي والذنوب التي يقترفها الإنسان وذلك تحقيقًا لقاعدة القرآن العظيمة: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[416]

وأمّا الارتباط السُنَني بين المعاصي والعذاب فمنه ما يُدرَك بالعقل لجريان السنة والعادة به، ومنه ما لا يُدرَك إلا بالخبر الشرعي، وكلاهما يجب الإيمان بهما لدلالتهما اليَقينيّة، وهذا بابٌ طويل، ومقامات الفهم فيه هي مقامات فهم القضاء والقَدَر بين أهل الإسلام من مُصيب ومخطئ.

---

[415] الأعراف : 133

[416] الروم : 41


تم بحمد الله